أن الآية عامة تشمل جميع القرابات كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للارث بالحلف والاخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولا ، وعلى هذا فتشمل ذوى الارحام بالاسم الخاص ، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » قالوا فلوكان ذا حق لكان ذا فرض فى كتاب الله مسمى فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا والله أعلم

آخر تفسير سورة الأنفال ولله الحمد والمنة وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل

﴿ تفسير سورة التوبة مدنية ﴾

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن أبى إسحق قال سمعت البراء يقول آخر آية نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) وآخر سورة نزلت براءة ، وإنما لم يبسمل فى أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة فى أولها فى المصحف الإمام بل اقتدوا فى ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه كما قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد ومحمد ابن أبى جعفر وابن أبى عدى وسهيل بن يوسف قالوا حدثنا عوف بن أبى جميلة أخبرنى يزيد الفارسى أخبرنى ابن عباس قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطول ما حملكم على ذلك فقال عثمان كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها وخشيت أنها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطول وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من طرق أخر عن عوف الأعرابى به وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه أميرا على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا وأن ينادى فى الناس (براءة من الله ورسوله) فلما قفل أتبعه بعلى بن أبى طالب ليكون مبلغا عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له كما سيأتى بيانه فقوله تعالى (براءة من الله ورسوله) أى هذه براءة أى تبرؤ من الله ورسوله (إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) اختلف المفسرون ههنا اختلافا كثيرا فقال قائلون هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقوله تعالى (فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم) الآية ولما سيأتى فى الحديث . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله وروى عن الكلبى ومحمد بن كعب القرظى وغير واحد . وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) الآية قال حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فى الأرض حيث شاءوا وأجل أجل من من ليس عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم فذلك خمسون ليلة فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم

أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضا حتى يدخلوا فى الإسلام وقال أبو معشر المدنى حدثنا محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع وبعث على بن أبى طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون فى الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلهم عشرين من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرا من ربيع الآخر وقرأها عليهم فى منازلهم وقال : لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد (براءة من الله ورسوله) إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم فقفل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج ثم قال : « إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك » فأرسل أبا بكر وعلياً رضى الله عنهما فطافا بالناس فى ذى المجاز وبأمكنتهم التى كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها فآذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر فهى الأشهر المتواليات عشرون من ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ثم لا عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا وهكذا روى عن السدى وقتادة وقال الزهرى : كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم وهذا القول غريب وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك ولهذا قال تعالى .

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

يقول تعالى وإعلام (من الله ورسوله) وتقدم وإنذار إلى الناس (يوم الحج الأكبر) وهو يوم النحر الذى هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعا (أن الله برىء من المشركين ورسوله) أى برىء منهم أيضا ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال (فإن تبتم) أى مما أنتم فيه من الشرك والضلال (فهو خير لكم ، وإن توليتم) أى استمررتم على ما أنتم عليه (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) ، بل هو قادر عليكم وأنتم فى قبضته وتحت قهره ومشيئته (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) أى فى الدنيا بالخزى والنكال وفى الآخرة بالمقامع والأغلال ، قال البخارى رحمه الله : حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث حدثنى عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . قال حميد ثم أردف النبى صلى الله عليه وسلم بعلى بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة : قال أبو هريرة فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءة وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ورواه البخارى أيضا حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ويوم الحج الأكبر يوم النحر وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذى حج فيه رسول الله ﷺ مشرك . هذا لفظ البخارى فى كتاب الجهاد . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله (براءة من الله ورسوله) قال لما كان النبى ﷺ زمن حنين اعتمر من الجعرانة ثم أمر أبا بكر على تلك الحجة قال معمر : قال الزهرى وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبا هريرة أن يؤذن ببراءة فى حجة أبى بكر قال أبو هريرة ثم أتبعنا النبى ﷺ علياً وأمره أن يؤذن ببراءة وأبو بكر على الموسم كما هو أو قال على هيئته . وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتاب بن الأسيد فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن مغيرة عن الشعبي عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال : ما كنتم تنادون ؟ . قال كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فان أجله أو مدته إلى أربعة أشهر فاذا مضت الأربعة الأشهر فان الله برئ من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال فكنت أنادي حتى صحل صوتي ، وقال الشعبي حدثني محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعثه النبي ﷺ ينادي فكان إذا صحل ناديت فقلت بأي شيء كنتم تنادون ؟ قال بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهده إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك . رواه ابن جرير من غير وجه عن الشعبي ، ورواه شعبة عن مغيرة عن الشعبي به إلا أنه قال : ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى أربعة أشهر وذكر تمام الحديث. قال ابن جرير وأخشى أن يكون وهما من بعض نقلته لأن الأخبار متضافرة في الأجل بخلافه .

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن سماك عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه ببراءة مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي» فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه الترمذي في التفسير عن بندار عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة به ثم قال حسن غريب من حديث أنس رضي الله عنه ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا محمد بن سليمان حدثنا لوين حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعا النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال « أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم » فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال يارسول الله ، نزل فيّ شيء ؟ فقال « لا ولكن جبريل جاءني فقال لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك » هذا إسناد فيه ضعف ، وليس المراد أن أبا بكر رضي الله عنه رجع من فوره بل بعد قضائه للمناسك التي أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء مبينا في الرواية الأخرى . وقال عبدالله أيضا حدثني أبو بكر حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط بن نصر عن سماك عن حنش عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه ببراءة قال يانبي الله إني لست باللسن ولا بالخطيب قال « لابد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت » قال فان كان ولا بد فسأذهب أنا ، قال « انطلق فان الله يثبت لسانك ويهدي قلبك » قال ثم وضع يده على فيه . وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن أبي إسحق عن زيد بن يثيع رجل من همدان سألنا عليا بأي شيء بعثت ؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة قال بعثت بأربع : لايدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فعهده إلى مدته ، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا ، ورواه الترمذي عن قلابة عن سفيان بن عيينة وقال حسن صحيح كذا قال ، ورواه شعبة عن أبي إسحق فقال زيد بن أثيل وهم فيه ، ورواه الثوري عن أبي إسحق عن بعض أصحابه عن علي رضي الله عنه .

وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن زكريا عن أبي إسحق عن زيد بن يثيع عن علي قال : بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع : أن لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ثم رواه ابن جرير عن محمد ابن عبد الأعلى عن ابن ثور عن معمر عن أبي إسحق عن الحارث عن علي قال أمرت بأربع فذكره ، وقال إسرائيل عن أبي إسحق عن زيد بن يثيع قال نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر ثم أرسل عليا فأخذها فلما رجع أبو بكر قال نزل فيّ شيء ؟ قال « لا ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي » فانطلق إلى أهل مكة فقام فيهم بأربع لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته وقال محمد بن إسحق عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبي جعفر

محمد بن علي بن الحسين بن علي قال : لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس فقيل يارسول الله : لو بعثت إلى أبي بكر فقال « لايؤدى عنى إلارجل من أهل بيتى » ثم دعا عليا فقال « اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان : ومن كان له عهد عند رسول الله ـ ﷺ ـ فهو له إلى مدته » فخرج على رضى الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر فى الطريق فلما رآه أبو بكر قال : أمير أومأمور ؟ فقال بل مأمور ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن بالناس بالذى أمره رسول الله ﷺ فقال يا أيها الناس إنه لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته : فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبدالله بن عبد الحكم أخبرنا أبوزرعة وعبدالله بن راشد أخبرنا حيوة بن شريح أخبرنا ابن صخر أنه سمع أبامعاوية البجلى من أهل الكوفة يقول سمعت أبا الصهباء البكرى وهو يقول : سألت عليا عن يوم الحج الأكبر فقال إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبى قحافة يقيم للناس الحج وبعثنى معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة ، فلما قضى خطبته التفت إلىّ فقال قم ياعلى فأد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة ثم صدرنا فأتينا منى فرميت الجمرة ونحرت البدنة ثم حلقت رأسى وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبى بكر يوم عرفة فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرأها عليهم فمن ثم أخال حسبتم أنه يوم النحر ألا وهو يوم عرفة ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن أبى إسحق سألت أبا جحيفة عن يوم الحج الأكبر قال يوم عرفة ، فقلت أمن عندك أم من عند أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال كل فى ذلك وقال عبد الرزاق أيضا عن ابن جريج عن عطاء قال : يوم الحج الأكبر يوم عرفة . وقال عمرو ابن الوليد السهمى حدثنا شهاب بن عباد البصرى عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد . قال فحججت بعد أبى فأتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا سعيد بن المسيب فأتيته فقلت إنى سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا سعيد بن المسيب فأخبرنى عن صوم يوم عرفة فقال أخبرك عمن هو أفضل منى مائة ضعف عمر أو ابن عمر كان ينهى عن صومه ويقول هو يوم الحج الأكبر رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، وهكذا روى عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جريج أخبرت عن محمد بن قيس عن ابن مخرمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم عرفة فقال « هذا يوم الحج الأكبر » وروى من وجه آخر عن ابن جريج عن محمد بن قيس عن المسور بن مخرمة عن رسول الله ﷺ أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر »

والقول الثانى أنه يوم النحر قال هشيم عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى عن على رضى الله عنه قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر . وقال أبو إسحق السبيعى عن الحارث الأعور سألت عليا رضى الله عنه عن يوم الحج الأكبر فقال هو يوم النحر ، وقال شعبة عن الحكم سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن على رضى الله عنه أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاء رجل فأخذ بلجام دابته فسأله عن يوم الحج الأكبر فقال هو يومك هذا خل سبيلها ، وقال عبد الرزاق عن سفيان عن شعبة عن عبد الملك بن عمير عن عبدالله بن أبى أوفى أنه قال يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وروى شعبة وغيره عن عبدالملك بن عمير به نحوه . وهكذا رواه هشيم وغيره عن الشيبانى عن عبدالله بن أبى أوفى . وقال الأعمش عن عبد الله بن سنان قال خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال : هذا يوم الأضحى وهذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر وقال حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس انه قال : الحج الأكبر

يوم النحر ، وكذا روى عن أبى جحيفة وسعيد بن جبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ونافع بن جبير بن مطعم والشعبى وإبراهيم النخعى ومجاهد وعكرمة وأبى جعفر الباقر والزهرى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر واختاره ابن جرير ، وقد تقدم الحديث عن أبى هريرة فى صحيح البخارى أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى وقد ورد فى ذلك أحاديث أخر كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنى سهل بن محمد الحسانى حدثنا أبو جابر الحرثى حدثنا هشام بن الغازى الجرشى عن نافع عن ابن عمر قال: وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع فقال « هذا يوم الحج الأكبر » وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه من حديث أبى جابر واسمه محمد بن عبد الملك به ، ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم عن هشام بن الغازى به ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز عن نافع به ، وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمدانى عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : قام فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة فقال « أتدرون أى يوم يومكم هذا؟ » قالوا يوم النحر ، قال « صدقتم يوم الحج الأكبر »

وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن المقدام حدثنا يزيد بن زريع حدثنا ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير له وأخذ الناس بخطامه أو زمامه فقال « أى يوم هذا ؟ » قال فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه فقال « أليس هذا يوم الحج الأكبر ؟ » وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج فى الصحيح . وقال أبو الأحوص عن شبيب عن عروة عن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فقال « أى يوم هذا ؟ » فقالوا اليوم الحج الأكبر ، وعن سعيد بن المسيب أنه قال : يوم الحج الأكبر اليوم الثانى من يوم النحر رواه ابن أبى حاتم ، وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها، وكذا قال أبو عبيد. قال سفيان: يوم الحج ويوم الجمل ويوم صفين أى أيامه كلها ، وقال سهل السراج سئل الحسن البصرى عن يوم الحج الأكبر فقال مالكم وللحج الأكبر ذاك عام حج فيه أبو بكر الذى استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس رواه ابن أبى حاتم، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن ابن عون سألت محمداً يعنى ابن سيرين عن يوم الحج الأكبر فقال كان يوما وافق فيه حج رسول الله ﷺ وحج أهل الوبر

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت فأجله أربعة أشهر يسيح فى الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التى عوهد عليها وقد تقدمت الأحاديث ومن كان له عهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهده إلى مدته وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحدا أى يمالىء عليهم من سواهم فهذا الذى يوفى له بذمته وعهده إلى مدته ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك فقال (إن الله يحب المتقين) أى الموفين بعهدهم

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

اختلف المفسرون فى المراد بالأشهر الحرم ههنا ما هى فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة فى قوله تعالى (منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) الآية قاله أبو جعفر الباقر ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم فى حقهم المحرم وهذا الذى ذهب إليه حكاه على بن أبى طلحة عن ابن عباس وإليه ذهب الضحاك أيضا وفيه نظر والذى يظهر من

حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحق وقتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) ثم قال (فإذا انسلخ الأشهر الحرم) أى إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى بعد فى هذه السورة الكريمة ، وقوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) أى من الأرض وهذا عام والمشهور تخصيصه بتحريم القتال فى الحرم بقوله (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم) وقوله (وخذوهم) أى وأسروهم إن شئتم قتلا وإن شئتم أسرا وقوله (واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) أى لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم ، بل اقصدوهم بالحصار فى معاقلهم وحصونهم والرصد فى طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام ولهذا قال (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ولهذا اعتمد الصديق رضى الله عنه فى قتال مانعى الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهى الدخول فى الإسلام والقيام بأداء واجباته ونبه بأعلاها على أدناها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التى هى حق الله عز وجل وبعدها أداء الزكاة التى هى نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيرا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة . وقد جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » الحديث وقال أبو إسحق عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه !

وقال الإمام أحمد حدثنا على بن إسحق أنبأنا عبد الله بن المبارك أنبأنا حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم » ورواه البخارى فى صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك به وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدى حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئا فارقها والله عنه راض » قال : وقال أنس: هو دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك فى كتاب الله فى آخر ما أنزل، قال الله تعالى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) قال: توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ثم قال فى آية أخرى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين) ورواه ابن مردويه ورواه محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة له . حدثنا إسحق بن إبراهيم أنبأنا حكام بن سلمة حدثنا أبو جعفر الرازى به سواء وهذه الآية الكريمة هى آية السيف التى قال فيها الضحاك بن مزاحم إنها نسخت كل عهد بين النبى ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عقد وكل مدة وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية: قال أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا فى الإسلام ، ونقض ما كان سمى لهم من العهد والميثاق ، وأذهب الشرط الأول . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا إسحق بن موسى الأنصارى قال : قال سفيان بن عيينة قال على بن أبى طالب بعث النبى ﷺ بأربعة أسياف سيف فى المشركين من العرب ، قال الله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) هكذا رواه مختصرا وأظن أن السيف الثانى هو قتال

أهل الكتاب لقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (والسيف الثالث) قتال المنافقين فى قوله (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الآية (والرابع) قتال الباغين فى قوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) ثم اختلف المفسرون فى آية السيف هذه فقال الضحاك والسدى هى منسوخة بقوله تعالى (فإما منا بعد وإما فداء) وقال قتادة بالعكس

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه (وإن أحد من المشركين) الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم (استجارك) أى استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله أى القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله (ثم أبلغه مأمنه) أى وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه (ذلك بأنه قوم لا يعلمون) أى إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله فى عباده، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى تفسير هذه الآية قال إنسان يأتيك ليسمع ماتقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاءه مسترشداً أو فى رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم واحداً بعد واحد يترددون فى القضية بينه وبين المشركين فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم، ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك» وقد قيض الله له ضرب العنق فى إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه فى زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة فأرسل إليه ابن مسعود فقال له إنك الآن لست فى رسالة وأمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه. والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الاسلام فى أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطى أماناً مادام متردداً فى دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الاقامة فى دار الاسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعى وغيره من العلماء رحمهم الله

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

يبين تعالى حكمته فى البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا فقال تعالى (كيف يكون للمشركين عهد) أى أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) يعنى يوم الحديبية كما قال تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله) الآية (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) أى مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين (فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك والمسلمون. استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة فى سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد وما لؤوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوهم معهم فى الحرم أيضاً فعند ذلك غزاهم

رسول الله ﷺ فى رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء ، وكانوا قريبا من ألفين ، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير فى الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله المحمود على جميع مايقدره ويفعله

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

يقول تعالى محرضا للمؤمنين على معاداتهم والتبرى منهم ومبينا أنهم لايستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ولأنهم لوظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولاراقبوا فيهم إلا ولاذمة . قال على بن أبى طلحة وعكرمة والعوفى عن ابن عباس : الإل القرابة والذمة العهد . وكذا قال الضحاك والسدى كما قال تميم بن مقبل

أفسد الناس خلوف خلفوا * قطعوا الإل وأعراق الرحم

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه وجدناهم كاذبا إلهم * وذو الإل والعهد لا يكذب

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد لايرقبون فى مؤمن إلا : قال الإل الله ، وفى رواية لايرقبون الله ولا غيره . وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية عن سليمان عن أبى مجلز فى قوله تعالى (لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة) مثل قوله جبريل ميكائيل إسرافيل كأنه يقول لايرقبون الله والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر . وعن مجاهد أيضا الإل العهد . وقال قتادة الإل الحلف

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى ذما للمشركين وحثا للمؤمنين على قتالهم (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) يعنى أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة (فصدوا عن سبيله) أى منعوا المؤمنين من اتباع الحق (إنهم ساء ما كانوا يعملون * لايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة) تقدم تفسيره وكذا الآية التى بعدها (فإن تابوا وأقاموا الصلاة) إلى آخرها تقدمت . وقال الحافظ أبوبكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يحيى بن أبى بكر حدثنا أبوجعفر الرازى حدثنا الربيع بن أنس قال سمعت أنس بن مالك يقول قال رسول الله ﷺ « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لايشرك به وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض » وهو دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك فى كتاب الله (فإن تابوا) يقول فان خلعوا الأوثان وعبادتها (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وقال فى آية أخرى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين) ثم قال البزار آخر الحديث عندى والله أعلم فارقها وهو عنه راض وباقيه عندى من كلام الربيع بن أنس

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾

يقول تعالى وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم أى عهودهم ومواثيقهم (وطعنوا

فى دينكم) أى عابوه وانتقصوه ، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو من طعن فى دين الإسلام أو ذكره بنقص ، ولهذا قال (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) أى يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . وقد قال قتادة وغيره : أئمة الكفر كأبى جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدد رجالا ، وعن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال مر سعد بن أبى وقاص برجل من الخوارج فقال الخارجى هذا من أئمة الكفر فقال سعد كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر رواه ابن مردويه ، وقال الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة أنه قال ما قوتل أهل هذه الآية بعد . وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه مثله ، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركى قريش فهى عامة لهم ولغيرهم والله أعلم ، وقال الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير أنه كان فى عهد أبى بكر رضى الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال إنكم ستجدون قوما مجوفة رءوسهم فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحب إلىّ من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول (فقاتلوا أئمة الكفر) رواه ابن أبى حاتم

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

وهذا أيضا تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا باخراج الرسول من مكة كما قال تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وقال تعالى (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) الآية وقال تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) الآية وقوله (وهم بدءوكم أول مرة) قيل المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلبا للقتال بغيا وتكبرا كما تقدم بسط ذلك ، وقيل المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان ولله الحمد والمنة . وقوله (أتخشوهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) يقول تعالى لا تخشوهم واخشون فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتى وعقوبتى فبيدى الأمر وما شئت كان وما لم أشأ لم يكن ، ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) وهذا عام فى المؤمنين كلهم ، وقال مجاهد وعكرمة والسدى فى هذه الآية (ويشف صدور قوم مؤمنين) يعنى خزاعة ، وأعاد الضمير فى قوله (ويذهب غيظ قلوبهم) عليهم أيضا . وقد ذكر ابن عساكر فى ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عن مسلم بن يسار عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال « يا عويش قولى اللهم رب النبى محمد اغفر ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن » ساقه من طريق أبى أحمد الحاكم عن الباغندى عن هشام بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن أبى الجوزاء عنه (ويتوب الله على من يشاء) أى من عباده (والله عليم) أى بما يصلح عباده (حكيم) فى أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو العادل الحاكم الذى لا يجور أبداً ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر بل يجازى عليه فى الدنيا والآخرة

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى (أم حسبتم) أيها المؤمنين أن نترككم مهملين لانختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ولهذا قال (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أى بطانة ودخيلة بل هم فى الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر

وما أدرى إذا يممت أرضا * أريد الخير أيهما يلينى

وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقال تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ؟) الآية وقال تعالى (ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه) الآية : والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه لا إله إلا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى ما ينبغى للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التى بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، ومن قرأ مسجد الله فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد فى الأرض الذى بنى من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له وأسسه خليل الرحمن هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أى بحالهم وقالهم كما قال السدى لو سألت النصرانى ما دينك ؟ لقال نصرانى ، ولو سألت اليهودى ما دينك لقال يهودى ، والصابئ لقال صابئ ، والمشرك لقال مشرك (أولئك حبطت أعمالهم) أى بشركهم (وفى النار هم خالدون) وقال تعالى (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) ولهذا قال تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد كما قال الإمام أحمد : حدثنا شريح حدثنا ابن وهب عن عمرو ابن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان . قال الله تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) » ورواه الترمذى وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من حديث عبدالله بن وهب به : وقال عبد بن حميد فى مسنده حدثنا يونس بن محمد حدثنا صالح المرى عن ثابت البنانى عن ميمون بن سياه وجعفر بن زيد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إنما عمار المساجد هم أهل الله » ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الواحد بن غياث عن صالح بن بشير المرى عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « إنما عمار المساجد هم أهل الله » ثم قال لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح ، وقد روى الدارقطنى فى الإفراد من طريق حكامة بنت عثمان بن دينار عن أبيها عن أخيه مالك بن دينار عن أنس مرفوعا « إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم » ثم قال غريب ، وروى الحافظ البهائى فى المستقصى عن أبيه بسنده إلى أبى أمية الطرسوسى حدثنا منصور بن صفير حدثنا صالح المرى عن ثابت عن أنس مرفوعا يقول الله : وعزتى وجلالى إنى لأهم بأهل الأرض عذابا فإذا نظرت إلى عمار بيوتى وإلى المتحابين فىّ وإلى المستغفرين بالإسحار صرفت ذلك عنهم . ثم قال ابن عساكر حديث غريب . وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا سعيد عن قتادة حدثنا العلاء بن زياد عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد » وقال عبد الرزاق عن معمر عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون الأودى قال . أدركت أصحاب محمد ﷺ

وهم يقولون إن المساجد بيوت الله فى الأرض وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها . وقال المسعودى عن حبيب ابن أبى ثابت وعدى بن ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى عنهما قال : من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصلى فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله . قال الله تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) الآية رواه ابن مردويه . وقد روى مرفوعا من وجه آخر وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها . وقوله (وأقام الصلاة) أى التى هى أكبر عبادات البدن (وآتى الزكاة) أى التى هى أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق وقوله (ولم يخش إلا الله) أى ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) يقول من وحد الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله (وأقام الصلاة) يعنى الصلوات الخمس (ولم يخش إلا الله) يقول لم يعبد إلا الله ثم قال (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) يقول تعالى إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه ﷺ (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) وهى الشفاعة ، وكل عسى فى القرآن فهى واجبة ، وقال محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله : وعسى من الله حق

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

قال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال إن المشركين قالوا عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره فذكر الله استكبارهم وإعراضهم فقال لأهل الحرم من المشركين (قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامراً تهجرون) يعنى أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال (به سامراً) كانوا يسمرون به ويهجرون القرآن والنبى ﷺ فخير الله الإيمان والجهاد مع النبى ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به ، وإن كانوا يعمرون بيته ويحرمون به . قال الله تعالى (لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين) يعنى الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشركهم فلن تغن عنهم العمارة شيئا

وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية : قال قد نزلت فى العباس بن عبد المطلب حين أسر ببدر قال لئن كنتم سبقتمونا بالاسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى ونفك العانى ، قال الله عز وجل (أجعلتم سقاية الحاج - إلى قوله - والله لا يهدى القوم الظالمين) يعنى أن ذلك كله كان فى الشرك ولا أقبل ما كان فى الشرك وقال الضحاك بن مزاحم أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك فقال العباس أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العانى ونحجب البيت ونسقى الحاج فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية . وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن عيينة عن إسماعيل عن الشعبى قال نزلت فى على والعباس رضى الله عنهما بما تكلما فى ذلك وقال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن أبى صخرة قال سمعت محمد بن كعب القرظى يقول افتخر طلحة بن شيبة من بنى عبد الدار وعباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب فقال طلحة أنا صاحب البيت معى مفتاحه ولو أشاء بت فيه ، وقال العباس أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت فى المسجد ، فقال على رضى الله عنه ما أدرى ما تقولان لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله عز وجل

(أجعلتم سقاية الحاج ؟) الآية كلها وهكذا قال السدى إلا أنه قال افتخر على والعباس وشيبة بن عثمان وذكر نحوه ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عمرو عن الحسن قال : نزلت فى على وعباس وعثمان وشيبة تكلموا فى ذلك فقال العباس ما أرانى إلا أنى تارك سقايتنا فقال رسول الله ﷺ « أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيرا » ورواه محمد بن ثور عن معمر عن الحسن فذكر نحوه ، وقد ورد فى تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلابد من ذكره هنا ، قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن يحيى بن أبى كثير عن النعمان بن بشير رضى الله عنه أن رجلا قال : ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الاسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال لاترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبى ﷺ فسألناه . فنزلت (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام – إلى قوله – لايستوون عند الله)

(طريق أخرى) قال الوليد بن مسلم حدثنى معاوية بن سلام عن جده أبى سلام الأسود عن النعمان بن بشير الأنصارى قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالى أن لا أعمل لله عملا بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام . وقال آخر : بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم فزجرهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقال : لاترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . قال ففعل فأنزل الله عز وجل (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام – إلى قوله – والله لايهدى القوم الظالمين) ورواه مسلم فى صحيحه وأبوداود وابن جرير وهذا لفظه وابن مردويه وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم وابن حبان فى صحيحه

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء ، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا أى اختاروا الكفر على الإيمان ، وتوعد على ذلك كقوله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآية . وروى الحافظ البيهقى من حديث عبدالله بن شوذب قال : جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر وجعل أبوعبيدة يحيد عنه فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبوعبيدة فقتله فأنزل الله فيه هذه الآية (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) الآية . ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد فى سبيله فقال (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها) أى اكتسبتموها وحصلتموها (وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها) أى تحبونها لطيبها وحسنها أى إن كانت هذه الأشياء (أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا) أى فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال (حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين)

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن زهرة بن معبد عن جده قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يارسول الله لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا من نفسى ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » فقال عمر فأنت الآن والله أحب إلىّ من نفسى ، فقال رسول الله « الآن يا عمر » انفرد بإخراجه البخارى فرواه عن يحيى بن سليمان عن ابن وهب عن حيوة بن شريح عن أبى عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله بن هشام عن النبى ﷺ بهذا وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وروى الإمام أحمد وأبو داود واللفظ له من حديث أبى عبد الرحمن الخراسانى عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » وروى الإمام أحمد أيضا عن يزيد ابن هارون عن أبى حباب عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك ، وهذا شاهد للذى قبله والله أعلم

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَٰفِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قال ابن جريج عن مجاهد هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر فان يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبامداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . وقد قال الإمام أحمد حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبى سمعت يونس يحدث عن الزهرى عن عبيد الله عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة » وهكذا رواه أبو داود والترمذى ثم قال هذا حديث حسن غريب جدا لا يسنده أحد غير جرير بن حازم ، وإنما روى عن الزهرى عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا . وقد رواه ابن ماجه والبيهقى وغيره عن أكثم بن الجون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه والله أعلم . وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة . وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف النضرى ، ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بنى هلال وهم قليل وناس من بنى عمرو بن عامر وعون بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى جيشه الذى جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء فى ألفين فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة فى أول النهار فى غلس الصبح انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء

يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول « إلىّ عباد الله إلىّ أنا رسول الله » ويقول فى تلك الحال « أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب » وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون فمنهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما والعباس وعلى والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضى الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادى بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة يعنى شجرة بيعة الرضوان التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادى بهم يا أصحاب السمرة ، ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة ، فجعلوا يقولون يا لبيك يا لبيك ، وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره ، وقال « اللهم أنجز لى ما وعدتنى » ثم رمى القوم بها فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينيه وفمه ما شغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا يعلى بن عطاء عن عبيد الله بن سيار عن أبى همام عن أبى عبد الرحمن الفهرى واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى غزوة حنين فسرنا فى يوم قائظ شديد الحر فنزلنا تحت ظلال الشجر فلما زالت الشمس لبست لأمتى وركبت فرسى فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو فى فسطاطه فقلت السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته حان الرواح فقال : « أجل » فقال « يا بلال » فثار من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر فقال : لبيك وسعديك وأنا فداؤك فقال « أسرج لى فرسى » فأخرج سرجا دفتاه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر قال فأسرج فركب وركبنا فصافقناهم عشيتنا وليلتنا فتشامت الخيلان فولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى (ثم وليتم مدبرين) فقال رسول الله ﷺ « يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله » ثم قال « يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله » قال ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفا من تراب فأخبرنى الذى كان أدنى إليه منى أنه ضرب به وجوههم وقال « شاهت الوجوه » فهزمهم الله تعالى . قال يعلى بن عطاء فحدثنى أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه ترابا وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كامرار الحديد على الطست الجديد ، وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة من حديث أبى داود الطيالسى عن حماد بن سلمة به وقال محمد بن إسحق حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فأعدوا وتهيئوا فى مضايق الوادى وأحنائه وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى انحط بهم الوادى فى عماية الصبح فلما انحط الناس ثارت فى وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين يقول « أيها الناس هلموا إلى أنا رسول الله ، أنا رسول الله ، أنا محمد ابن عبد الله » فلا شىء وركبت الإبل بعضها بعضا فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس قال « يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة » فأجابوه لبيك ، لبيك ، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه فى عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائة فاستعرض الناس فاقتتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار ثم جعلت آخراً بالخزرج وكانوا صبراء عند الحرب وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ركابه فنظر إلى مجتلد القوم فقال « الآن حمى الوطيس » قال فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ملقون فقتل الله منهم من قتل وانهزم منهم ما انهزم وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم وفى الصحيحين من حديث شعبة عن أبى إسحق عن البراء بن عازب رضى الله عنهما أن رجلا قال له يا أبا عمارة

أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ فقال لكن رسول الله ﷺ لم يفر إن هوازن كانوا قوما رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوسفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهويقول « أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب » قلت وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجرى ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب ، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلا عليه وعلماً منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان ، ولهذا قال تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله) أى طمأنينته وثباته على رسوله (وعلى المؤمنين) أى الذين معه (وأنزل جنوداً لم تروها) وهم الملائكة كما قال الإمام أبوجعفر بن جرير حدثنى الحسن بن عرفة قال حدثنى المعتمر بن سليمان عن عوف هو ابن أبى جميلة الاعرابى قال سمعت عبد الرحمن مولى ابن برثن حدثنى رجل كان مع المشركين يوم حنين قال لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة، قال لما كشفناهم جعلنا نسوقهم فى آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها ،وقال الحافظ أبوبكر البيهقى أنبأنا أبو عبدالله الحافظ حدثنى محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحق بن الحسن الجرمى حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحارث بن حصيرة حدثنا القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال : قال ابن مسعود رضى الله عنه كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه فى ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضى قدما فحادت بغلته فمال عن السرج فقلت : ارتفع رفعك الله قال « ناولنى كفاً من التراب » فناولته قال فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً قال « أين المهاجرون والأنصار ؟ » قلت : هم هناك قال « اهتف بهم » فهتفت بهم فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن عفان به نحوه ، وقال الوليد بن مسلم حدثنى عبدالله بن المبارك عن أبى بكر الهذلى عن عكرمة مولى ابن عباس عن شيبة بن عثمان قال رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عرى ذكرت أبى وعمى وقتل على وحمزة إياهما فقلت اليوم أدرك ثأرى منه قال فذهبت لأجيئه عن يمينه فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت : عمه ولن يخذله قال فجئته عن يساره فإذا أنا بأبى سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب فقلت : ابن عمه ولن يخذله فجئته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لى شواظ من نار بينى وبينه كأنه برق فخفت أن يمحشنى فوضعت يدى على بصرى ومشيت القهقرى فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « ياشيبة ياشيبة ادن منى اللهم أذهب عنه الشيطان » قال فرفعت إليه بصرى ولهو أحب إلى من سمعى وبصرى فقال « ياشيبة قاتل الكفار » رواه البيهقى من حديث الوليد فذكره ثم روى من حديث أيوب بن جابر عن صدقة بن سعيد عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين والله ما أخرجنى إسلام ولا معرفة به ولكننى أبيت أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه يا رسول الله إنى أرى خيلا بلقا فقال « ياشيبة إنه لايراها إلا كافر » فضرب بيده على صدرى ثم قال « اللهم اهد شيبة » ثم ضربها الثانية ثم قال « اللهم اهد شيبة » ثم ضربها الثالثة ثم قال « اللهم اهد شيبة » قال فوالله مارفع يده عن صدرى فى الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلىّ منه وذكر تمام الحديث فى التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله تعالى المشركين ، قال محمد بن إسحق حدثنى أبى إسحق بن يسار عمن حدثه عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتتلون إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم فاذا نمل منثور قد ملأ الوادى فلم يكن إلا هزيمة القوم فما كنا نشك

أنها الملائكة ، وقال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال سمعت يزيد بن عامر السوائى وكان شهد حنينا مع المشركين ثم أسلم بعد فكنا نسأله عن الرعب الذى ألقى الله فى قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطست فيطن فيقول كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا ، وقد تقدم له شاهد من حديث الفهرى يزيد بن أسيد فالله أعلم ، وفى صحيح مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام قال هذا ما حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم » ولهذا قال تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) وقوله (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير مابين صبى وامرأة فرده عليهم وقسم الأموال بين الغانمين ونفل أناسا من الطلقاء لكى يتألف قلوبهم على الاسلام فأعطاهم مائة مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضرى واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التى يقول فيها :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله * فى الناس كلهم بمثل محمد * أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى
ومتى يشأ يخبرك عما فى غد * وإذا الكتيبة عردت أنيابها * بالسمهرى وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله * وسط المباءة خادر فى مرصد

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينا وذاتا بنفى المشركين الذين هم نجس دينا عن المسجد الحرام وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها فى سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليا صحبة أبى بكر رضى الله عنهما عامئذ وأمره أن ينادى فى المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . فأتم الله ذلك وحكم به شرعا وقدرا . وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول فى قوله تعالى (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة . وقد روى مرفوعا من وجه آخر فقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا شريك عن الأشعث يعنى ابن سوار عن الحسن عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمهم » تفرد به الإمام أحمد مرفوعا والموقوف أصح إسنادا . وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قول الله تعالى (إنما المشركون نجس) وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى (فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد فى الصحيح « المؤمن لا ينجس » وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن من صافحهم فليتوضأ . رواه ابن جرير . وقوله (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) قال محمد بن إسحق وذلك أن الناس قالوا لتقطعن عنا الأسواق ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فأنزل الله (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) من وجه غير ذلك (إن شاء) إلى قوله (وهم صاغرون) أى هذا عوض ما تخوفتم من قطع

تلك الأسواق فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية ، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم (إن الله عليم) أى بما يصلحكم (حكيم) أى فيما يأمر به وينهى عنه لأنه الكامل فى أفعاله وأقواله العادل فى خلقه وأمره تبارك وتعالى ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التى يأخذونها من أهل الذمة . وقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) فهم فى نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله . بل لحظوظهم وأهوائهم فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم ، ولهذا قال (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب) وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهد أمور المشركين ودخل الناس فى دين الله أفواجا واستقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك فى سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفا وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك فى عام جدب ووقت قيظ وحر وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريبا من عشرين يوما ثم استخار الله فى الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتى بيانه بعد إن شاء الله تعالى . وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعى وأحمد فى المشهور عنه وقال أبو حنيفة رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب. وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابى ومجوسى ووثنى وغير ذلك ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا والله أعلم . وقوله (حتى يعطوا الجزية) أى إن لم يسلموا (عن يد) أى عن قهر لهم وغلبة (وهم صاغرون) أى ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروهم إلى أضيقه » ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه تلك الشروط المعروفة فى إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعرى قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا نحيى منها ما كان خططا للمسلمين وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ولا نؤوى فى كنائسنا ولا منازلنا جاسوسا ولا نكتم غشا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركا ولا ندعو إليه أحدا ولا نمنع أحدا من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أرادوه وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم فى شىء من ملابسهم فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتنى بكناهم ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا

نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وأن نجز مقاديم رءوسنا وأن نلزم زيناحيثما كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا إلا ضربا خفيفا وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين ولا نخرج سعانين ولا بعوثا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم فى منازلهم . قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحدا من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فان نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلاذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا فى العزير إنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وذكر السدى وغيره أن الشبهة التى حصلت لهم فى ذلك أن العمالقة لما غلبت على بنى إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقى العزير يبكى على بنى إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذ امرأة تبكى عند قبر وهى تقول : وامطعماه واكاسياه فقال لها : ويحك من كان يطعمك قبل هذا ؟ قالت الله قال : فان الله حى لا يموت ، قالت يا عزير فمن كان يعلم قبر العلماء قبل بنى إسرائيل ؟ قال : الله . قالت فلم تبكى عليهم ؟ فعرف أنه شىء قد وعظ به ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فانك ستلقى هناك شيخا فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئا كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال يا بنى إسرائيل قد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزير ما كنت كذابا فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلما وكتب التوراة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التى كانوا أودعوها فى الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحا فقال بعض جهلتهم إنما صنع هذا لأنه ابن الله . وأما ضلال النصارى فى المسيح فظاهر ، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال (ذلك قولهم بأفواههم) أى لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم (يضاهئون) أى يشابهون (قول الذين كفروا من قبل) أى من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء (قاتلهم الله) قال ابن عباس لعنهم الله (أنى يؤفكون ؟) أى كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل ؟ وقوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم) روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة وكان رئيسا فى قومه طىء وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنق عدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال : فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » وقال رسول الله ﷺ « يا عدى ما تقول ؟ أيضرك أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ما يضرك أيضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلها غير الله ؟ » ثم دعاه

إلى الاسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال « إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما فى تفسير (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا ، وقال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) أى الذى إذا حرم الشىء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ (لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) أى تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب (أن يطفئوا نور الله) أى ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم فمثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه وهذا لا سبيل اليه فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لابد أن يتم ويظهر ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) والكافر هو الذى يستر الشىء ويغطيه ومنه سمى الليل كافرا لأنه يستر الأشياء والزراع كافرا لأنه يغطى الحب فى الأرض كما قال (يعجب الكفار نباته) ثم قال تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) فالهدى هو ما جاء به من الاخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة فى الدنيا والآخرة (ليظهره على الدين كله) أى على سائر الأديان كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » ، وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن أبى يعقوب سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحى من محارب الصبح فلما صلوا قال شاب منهم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها فى النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة » . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنا سليم بن عامر عن تميم الدارى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين بعز عزيز ويذل ذليلا ، عزا يعز الله به الاسلام وذلا يذل الله به الكفر » فكان تميم الدارى يقول قد عرفت ذلك أهل بيتى لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية .

وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم حدثنى ابن جابر سمعت سليم بن عامر قال سمعت المقداد بن الأسود يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الاسلام يعز عزيزا ، ويذل ذليلا أما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وأما يذلهم فيدينون لها » وفى المسند أيضا حدثنا محمد بن أبى عدى عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبى حذيفة عن عدى بن حاتم سمعه يقول دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ياعدى أسلم تسلم » فقلت إنى من أهل دين قال « أنا أعلم بدينك منك » فقلت أنت أعلم بدينى منى ؟ قال « نعم ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ » قلت بلى ! قال « فإن هذا لا يحل لك فى دينك » قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال « أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الاسلام ، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة ؟ » قلت لم أرها وقد سمعت بها ، قال « فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » قلت كسرى بن هرمز ؟ قال « نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد » قال عدى بن حاتم : فهذه

obeikandl.com

الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها . وقال مسلم حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرقاشى حدثنا خالد بن الحارث حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن الأسود بن العلاء عن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى » فقلت يارسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) الآية أن ذلك تام ، قال « إنه سيكون من ذلك ماشاء الله عز وجل ، ثم يبعث الله ريحا طيبة فيتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لاخير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم»

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

قال السدى : الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وهو كما قال فإن الأحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت) والرهبان عباد النصارى والقسيسون علماؤهم كما قال تعالى (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى . وفى الحديث الصحيح « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» قالوا اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟ » وفى رواية فارس والروم ؟ قال «فمن الناس إلا هؤلاء ؟ » والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أقوالهم وأحوالهم ولهذا قال تعالى (ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم فى الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجىء إليهم فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى . وقوله تعالى (ويصدون عن سبيل الله) أى وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق بالباطل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لاينصرون . وقوله (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله) الآية . هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك

وهل أفسد الدين إلا الملوك * وأحبار سوء ورهبانها

وأما الكنز فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر هو المال الذى لاتؤدى زكاته ، وروى الثورى وغيره عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهرا لاتؤدى زكاته فهو كنز ، وقد روى هذا عن ابن عباس وجابر وأبى هريرة موقوفا ومرفوعا ، وقال عمر بن الخطاب نحوه أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا فى الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض ، وروى البخارى من حديث الزهرى عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال ، وكذا قال عمر بن العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية . وقال سعيد بن محمد بن زياد عن أبى أمامة أنه قال : حلية السيوف من الكنز . ما أحدثكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ وقال الثورى عن أبى حصين عن أبى الضحى عن جعدة بن

هبيرة عن على رضى الله عنه قال : أربعة آلاف فمادونها نفقة فما كان أكثر من ذلك فهو كنز وهذا غريب وقد جاء فى مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما أحاديث كثيرة. ولنورد منها هنا طرفا يدل على الباقى قال عبد الرزاق أخبرنا الثورى أخبرنى أبو حصين عن أبى الضحى عن جعدة بن هبيرة عن على رضى الله عنه فى قوله (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية . قال النبى ﷺ « تبا للذهب تبا للفضة » يقولها ثلاثا قال فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا فأى مال نتخذ ؟ فقال عمر رضى الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا فأى المال نتخذ قال « لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين أحدكم على دينه »

(حديث آخر) قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبى محمد بن جعفر حدثنا شعبة حدثنى سالم بن عبد الله أخبرنا عبد الله بن أبى الهذيل حدثنى صاحب لى أن رسول الله ﷺ قال « تبا للذهب والفضة » قال وحدثنى صاحبى أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله قولك « تبا للذهب والفضة » ماذا ندخر ؟ قال رسول الله ﷺ « لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين على الآخرة »

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم بن أبى الجعد عن ثوبان قال : لما نزل فى الذهب والفضة ما نزل قالوا فأى المال نتخذ ؟ قال عمر فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بعير فأدركه وأنا فى أثره فقال يا رسول الله أى المال نتخذ ؟ قال « قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة » ورواه الترمذى وابن ماجه من غير وجه عن سالم بن أبى الجعد وقال الترمذى حسن وحكى عن البخارى أن سالما لم يسمعه من ثوبان قلت ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلا والله أعلم

(حديث آخر) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا حميد بن مالك حدثنا يحيى بن يعلى المحاربى حدثنا أبى حدثنا غيلان بن جامع المحاربى عن عثمان بن أبى اليقظان عن جعفر بن أبى إياس عن مجاهد عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية كبر ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالا يبقى بعده فقال عمر : أنا أفرج عنكم فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبى ﷺ فقال : يانبى الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية. فقال رسول الله ﷺ « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم» قال فكبر عمر ثم قال له النبى ﷺ « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته » ورواه أبو داود والحاكم فى مستدركه وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى به وقال الحاكم صحيح على شرطهما ولم يخرجاه

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا الأوزاعى عن حسان بن عطية قال كان شداد بن أوس رضى الله عنه فى سفر فنزل منزلا فقال لغلامه ائتنا بالسفرة نعبث بها فأنكرت عليه فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه فلا تحفظوها على واحفظوا ما أقول لكم سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما وأسألك لسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم ،وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب »

وقوله تعالى (يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما كما فى قوله (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم) أى هذا بذاك وهذا الذى كنتم تكنزون لأنفسكم ولهذا يقال من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله عذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها كما كان أبو لهب لعنه الله جاهدا فى عداوة رسول الله ﷺ وامرأته تعينه فى ذلك كانت يوم القيامة عونا على عذابه أيضا فى جيدها أى عنقها حبل من مسد أى يجمع من الحطب فى النار وتلقى عليه ليكون ذلك أبلغ فى عذابه ممن هو أشفق عليه فى الدنيا

كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها كانت أضر الأشياء عليهم فى الدار الآخرة فيحمى عليها فى نار جهنم وناهيك بحرها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم قال سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود : والذى لا إله غيره لا يكوى عبد يكنز فيمس دينار دينارا ولا درهم درهما ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته ، وقد رواه ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا ولا يصح رفعه والله أعلم

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال بلغنى أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعا يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول : أنا كنزك لا يدرك منه شيئا إلا أخذه . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة عن سالم بن أبى الجعد عن معدان بن أبى طلحة عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول « من ترك بعده كنزا مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول ويلك ما أنت ؟ فيقول أنا كنزك الذى تركته بعدك ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبعها سائر جسده » ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث يزيد عن سعيد به وأصل هذا الحديث فى الصحيحين من رواية أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وفى صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » وذكر تمام الحديث. وقال البخارى فى تفسير هذه الآية حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن حصين عن زيد بن وهب قال مررت على أبى ذر بالربذة فقلت ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال كنا بالشام فقرأت (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) فقال معاوية ما هذه فينا ما هذه إلا فى أهل الكتاب ، قال قلت إنها لفينا وفيهم ورواه ابن جرير من حديث عبيد بن القاسم عن حصين عن زيد بن وهب عن أبى ذر رضى الله عنه فذكره وزاد فارتفع فى ذلك بينى وبينه القول فكتب إلى عثمان يشكونى فكتب إلى عثمان أن أقبل إليه قال فأقبلت إليه فلما قدمت المدينة ركبنى الناس كأنهم لم يرونى قبل يومئذ فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لى تنح قريبا قلت والله لن أدع ما كنت أقول (قلت) كان من مذهب أبى ذر رضى الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال وكان يفتى بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ فى خلافه فنهاه معاوية فلم ينته فخشى أن يضر بالناس فى هذا فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالربذة وحده وبها مات رضى الله عنه فى خلافة عثمان . وقد اختبره معاوية رضى الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ثم بعث إليه الذى أتاه بها فقال إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب فقال ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالى حاسبناك به وهكذا روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنها عامة وقال السدى هى فى أهل القبلة وقال الأحنف بن قيس قدمت المدينة فبينا أنا فى حلقة فيها ملأ من قريش إذ جاء رجل أخشن الثياب أخشن الجسد أخشن الوجه فقام عليهم فقال . بشر الكنازين برضف يحمى عليه فى نار جهنم فيوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل قال فوضع القوم رءوسهم فما رأيت أحدا منهم رجع إليه شيئا قال وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال إن هؤلاء لا يعلمون شيئا وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر « ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا يمر على ثلاثة أيام وعندى منه شىء إلا دينار أرصده لدين » فهذا والله أعلم هو الذى حدا أبا ذر على القول بهذا

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن سعيد بن أبى الحسن عن عبد الله بن الصامت رضى الله عنه أنه كان مع أبى ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية فجعلت تقضى حوائجه ففضلت معها سبعة فأمرها أن تشترى به فلوسا قال قلت لو ادخرته لحاجة بيوتك وللضيف ينزل بك قال إن خليلى عهد إلى أن أيما ذهب أو فضة أوكىء عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله عز وجل . ورواه عن يزيد عن همام به وزاد إفراغا

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته عن محمد بن مهدي حدثنا عمر بن أبي سلمة عن صدقة ابن عبد الله عن طلحة بن زيد عن أبي فروة الرهاوي عن عطاء عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الق الله فقيراً ولا تلقه غنيا » قال يارسول الله كيف لي بذلك ؟ قال « ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تخبأ » قال يارسول الله كيف لي بذلك ؟ قال رسول الله ﷺ « هو ذاك وإلا فالنار » إسناده ضعيف

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عيينة عن يزيد بن الصرم قال سمعت عليا رضي الله عنه يقول مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله ﷺ « كيتان صلوا على صاحبكم » وقد روى هذا من طرق أخر ، وقال قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة صدى بن عجلان قال مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال رسول الله ﷺ « كية » ثم توفي رجل آخر فوجد في مئزره ديناران فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيتان » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو النضر إسحق بن إبراهيم الفراديسي حدثنا معاوية بن يحيي الاطرابلسي حدثني أرطاة حدثني أبو عامر الهوزني سمعت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه » وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمود بن خداش حدثنا سيف بن محمد الثوري حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لايوضع الدينار على الدينار ، ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » سيف هذا كذاب متروك

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل أخبرنا أيوب أخبرنا محمد بن سيرين عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » ثم قال « أي يوم هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال « أليس يوم النحر » قلنا بلى ثم قال « أي شهر هذا » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال « أليس ذا الحجة » قلنا بلى ثم قال « أي بلد هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أليست البلدة ؟ » قلنا بلى قال « فإن دماءكم وأموالكم — وأحسبه قال — وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لاترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ألاهل بلغت ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه » ورواه البخاري في التفسير وغيره . ومسلم من حديث أيوب عن محمد وهو ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه به ، وقد قال ابن جرير حدثنا معمر حدثنا روح حدثنا أشعث عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات — ذو القعدة وذو الحجة والمحرم — ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » ورواه البزار عن محمد ابن معمر به . ثم قال لايروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ، وقد رواه ابن عون وقرة عن ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه به ، وقال ابن جرير أيضا حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي حدثنا زيد ابن حباب حدثنا موسى بن عبيدة الربذي حدثني صدقة بن يسار عن ابن عمر قال خطب رسول الله ﷺ في حجة

الوداع بمنى فى أوسط أيام التشريق فقال « أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان ، وذوالقعدة وذوالحجة والمحرم » وروى ابن مردويه من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مثله أو نحوه وقال حماد بن سلمة حدثنى على بن زيد عن أبى حمزة الرقاشى عن عمه وكانت له صحبة قال كنت آخذا بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال رسول الله ﷺ « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم » وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله (منها أربعة حرم) قال محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة . وقوله ﷺ فى الحديث « إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض » تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه ، وتثبيت للأمر على ماجعله الله فى أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا نسىء ولا تبديل كما قال فى تحريم مكة « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة » وهكذا قال ههنا « إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض » أى الأمر اليوم شرعا كما ابتدع الله ذلك فى كتابه يوم خلق السموات والأرض ، وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث إن المراد بقوله « قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أنه اتفق أن حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك السنة فى ذى الحجة وأن العرب قد كانت نسأت النسىء يحجون فى كثير من السنين بل أكثرها فى غير ذى الحجة وزعموا أن حجة الصديق فى سنة تسع كانت فى ذى القعدة وفى هذا نظر كما سنبينه إذا تكلمنا على النسىء وأغرب منه مارواه الطبرانى عن بعض السلف فى جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى فى يوم واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع والله أعلم. ﴿فصل﴾ ذكر الشيخ علم الدين السخاوى فى جزء جمعه سماه ﴿المشهور فى أسماء الأيام والشهور﴾ أن المحرم سمى بذلك لكونه شهراً محرما ، وعندى أنه سمى بذلك تأكيدا لتحريمه لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاما وتحرمه عاما قال ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم ، وصفر سمى بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار يقال صفر المكان إذا خلا ويجمع على أصفار كجمل وأجمال ، وشهر ربيع الأول سمى بذلك لارتباعهم فيه والارتباع الإقامة فى عمارة الربع ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء وعلى أربعة كرغيف وأرغفة ، وربيع الآخر كالأول . جمادى سمى بذلك لجمود الماء فيه ، قال وكانت الشهور فى حسابهم لا تدور ، وفى هذا نظر إذ كانت شهورهم منوطة من دورانها فلعلهم سموه بذلك أول ماسمى عند جمود الماء فى البرد كما قال الشاعر .

وليلة من جمادى ذات أندية * لا يبصر العبد فى ظلمائها الطنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة * حتى يلف على خرطومه الذنبا

ويجمع على جماديات كحبارى وحباريات وقد يذكر ويؤنث فيقال جمادى الأولى والأول وجمادى الآخر والآخرة. رجب من الترجيب وهو التعظيم ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات .شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع على شعابين وشعبانات . رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر يقال رمضت الفصال إذا عطشت ويجمع على رمضانات ورماضين وأرمضة قال وقول من قال إنه اسم من أسماء الله خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت اليه ، قلت قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبينته فى أول كتاب الصيام .شوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق قال ويجمع على شواول وشواويل وشوالات .القعدة بفتح القاف : قلت وكسرها . لقعودهم فيه عن القتال والترحال ويجمع على ذوات القعدة.الحجة بكسر الحاء قلت وفتحها سمى بذلك لإيقاعهم الحج فيه ويجمع على ذوات الحجة .أسماء الأيام أولها الأحد ويجمع على آحاد وأوحاد ووحود ، ثم يوم الاثنين ويجمع على أثانين الثلاثاء عد ويذكر ويؤنث ويجمع على ثلاثاوات وأثالث ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعاوات وأرابيع والخميس يجمع على أخمسة وأخامس ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضا ويجمع على جمع وجماعات ، السبت مأخوذ من السبت وهو القطع لانتهاء العدد عنده وكانت العرب تسمى الأيام أول ثم أهون ثم

جبار ثم دبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار ، قال الشاعر : من العرب العرباء العاربة المتقدمين :

أرجى أن أعيش وإن يومى * بأول أو بأهون أو جبار * أو التالى دبار فان أفته * فمؤنس أو عروبة أو شيار

وقوله تعالى (منها أربعة حرم) فهذا مما كانت العرب أيضا فى الجاهلية تحرمه وهو الذى كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم البسل كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقا وتشديدا ، وأما قوله « ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم فى رجب أنه الشهر الذى بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد ، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهرا وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك وحرم بعده شهرا آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب فى وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا ، وقوله (ذلك الدين القيم) أى هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق فى كتاب الله الأول قال تعالى (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أى فى هذه الأشهر المحرمة لأنها آكد وأبلغ فى الاثم من غيرها كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا فى حق من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم ، وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس فى قوله (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) قال فى الشهور كلها ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (إن عدة الشهور عند الله) الآية فلا تظلموا فيهن أنفسكم فى كلهن ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما وعظم حرماتهن وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم وقال قتادة فى قوله (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيما ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء ، وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه . اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالى ليلة القدر فعظموا ما عظم الله . فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل وقال الثورى عن قيس بن مسلم عن الحسن عن محمد بن الحنفية بأن لا تحرموهن كحرمتهن وقال محمد بن إسحق (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أى لا تجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما كما فعل أهل الشرك فإنما النسىء الذى كانوا يصنعون من ذلك زيادة فى الكفر (يضل به الذين كفروا) الآية ، وهذا القول اختيار ابن جرير وقوله (وقاتلوا المشركين كافة) أى جميعكم (كما يقاتلونكم كافة) أى جميعهم (واعلموا أن الله مع المتقين) وقد اختلف العلماء فى تحريم ابتداء القتال فى الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين (أحدهما) وهو الأشهر أنه منسوخ لأنه تعالى قال ههنا (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) وأمر بقتال المشركين ، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرا عاما ولو كان محرما فى الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت فى الصحيحين أنه خرج إلى هوازن فى شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلهم لجئوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوما وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر فى الشهر الحرام والقول الآخر أن ابتداء القتال فى الشهر الحرام حرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام) وقال (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) الآية وقال (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) الآية وقد تقدم أنها الأربعة المقررة فى كل سنة لا أشهر التسيير على أحد القولين . وأما قوله تعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ويكون من باب التهييج

والتحضيض أى كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا لهم إذا حاربتموهم وقاتلوهم بنظير ما يفعلون ، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين فى الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم كما قال تعالى (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) وقال تعالى (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم) الآية وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فانه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف فانهم هم الذين ابتدءوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال فعندها قصدهم رسـول الله ﷺ كما تقدم فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة ، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرهـا قريبا من أربعين يوما ، وكان ابتداؤه فى شهر حلال ودخـل الشهر الحرام فاستمر فيه أياما ثم قفل عنهم لأنه يغتفر فى الدوام مالا يغتفر فى الابتداء ، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم، ولنذكر الأحاديث الواردة فى ذلك (١) وقد حررنا ذلك فى السيرة والله أعلم

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم فى شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ماحرم الله وتحريمهم ما أحل الله ، فانهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة فى التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة كما قال شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بجذل الطعان

لقد علمت معدّ بأن قومى * كرام الناس إن لهم كراما * ألسنا الناسئين على معد
شهور الحل نجعلها حراما * فأى النـاس لم ندرك بوتر * وأى الناس لم نعلك لجاما

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (إنما النسىء زيادة فى الـكفر) قال النسىء أن جنادة بن عوف بن أمية الـكنانى كان يوافى الموسم فى كل عام وكان يكنى أبا ثمامة فينادى ألا إن أبا ثمامة لا يحاب ولا يعاب ألا وإن صفر العام الأول العام حـلال فيحلـه للناس فيحرم صفرا عاما ويحرم المحرم عاما فذلك قول الله (إنمـا النسىء زيادة فى الـكفر) يقول يتركون المحرم عاما وعاما يحرمونه ، وروى العوفى عن ابن عباس نحوه ، وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول أيها الناس : إنى لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول ، إنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر . ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ويقول إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله (ليواطئوا عدة ما حرم الله) قال يعنى الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام ، وروى عن أبى وائل والضحاك وقتادة نحو هذا ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (إنمـا النسىء زيادة فى الـكفر) الآية . قال هذا رجل من بنى كنانة يقال له القلمس وكان فى الجاهلية وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده، فلما كان هو قال اخرجوا بنا قالوا له هذا المحرم قال ننسئه العام هما العام صفران ، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين ، قال ففعل ذلك فلما كان عام قابل قال لا تغزوا فى صفر حرموه مع المحرم هما محرمان ، فهذه صفة غريبة فى النسىء وفيها نظر لأنهم فى عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط وفى العام الذى يليه يحرمون خمسة أشهر فأين هذا من قوله تعالى (يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله) وقد روى عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضا فقال عبد الرزاق أنا معمر عن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى (إنما النسىء زيادة فى الـكفر) الآية،قال، فرض الله عز وجل الحج فى ذى الحجة ، قال وكان المشركون

(١) لم يذكر المصنف رحمه الله الأحاديث التى وعد بها فتدبر

يسمون ذا الحجة المحرم وصفر وربيع وربيع وجمادى وجمادى ورجب وشعبان ورمضان وشوالا وذا القعدة وذا الحجة يحجون فيه مرة ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفرا ، ثم يسمون رجب جمادى الآخر ، ثم يسمون شعبان رمضان ، ثم يسمون شوالا رمضان ، ثم يسمون ذا القعدة شوالا ، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة ، ثم يسمون المحرم ذا الحجة فيحجون فيه واسمه عندهم ذو الحجة . ثم عادوا بمثل هذه الصفة فكانوا يحجون فى كل شهر عامين حتى إذا وافق حجة أبى بكر الآخر من العامين فى ذى القعدة ، ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم حجته التى حج فوافق ذا الحجة فذلك حين يقول النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبته « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » وهذا الذى قاله مجاهد فيه نظر أيضا وكيف تصح حجة أبى بكر وقد وقعت فى ذى القعدة وأنى هذا ؟ وقد قال الله تعالى (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله) الآية وإنما نودى به فى حجة أبى بكر فلولم تكن فى ذى الحجة لما قال تعالى (يوم الحج الأكبر) ولا يلزم من فعلهم النسىء هذا الذى ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم فى كل شهر عامين فإن النسىء حاصل بدون هذا فانهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفرا وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم فى السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفر وربيع وربيع إلى آخرها (فيحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله) أى فى تحريم أربعة أشهر من السنة إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم وتارة ينسئونه إلى صفر أى يؤخرونه وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ « إن الزمان قد استدار » الحديث أى إن الأمر فى عدة الشهور وتحريم ماهو محرم منها على ماسبق فى كتاب الله من العدد والتوالى لا كما تعتمده جهلة العرب من فصلهم تحريم بعضها بالنسىء عن بعض والله أعلم وقال ابن أبى حاتم : حدثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبرانى حدثنا مكى بن إبراهيم حدثنا موسى ابن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال « وإنما النسىء من الشيطان زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما » فكانوا يحرمون المحرم عاما ويستحلون صفر ويستحلون المحرم وهو النسىء وقد تكلم الإمام محمد بن إسحق على هذا فى كتاب السيرة كلاما جيدا مفيدا حسنا فقال : كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ماحرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل القلمس وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد ثم ابنه أمية بن قلع ثم ابنه عوف بن أمية ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت اليه فقام فيهم خطيبا فحرم رجبا وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاما ويجعل مكانه صفر ويحرمه عاما ليواطئ عدة ماحرم الله فيحل ماحرم الله يعنى ويحرم ما أحل الله والله أعلم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا شروع فى عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر وحمارّة القيظ فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله) أى إذا دعيتم إلى الجهاد فى سبيل الله (اثاقلتم إلى الأرض) أى تكاسلتم وملتم إلى المقام فى الدعة والخفض وطيب الثمار (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟) أى مالكم فعلتم هكذا رضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة ، ثم زهد تبارك وتعالى فى الدنيا ، ورغب

فى الآخرة فقال (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) كما قال الإمام أحمد . حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا حدثنا إسماعيل بن أبى خالد عن قيس عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله ﷺ « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم فلينظر بما ترجع ؟ » وأشار بالسبابة انفرد بإخراجه مسلم . وروى ابن أبى حاتم حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصى بحمص حدثنا الربيع بن روح حدثنا محمد بن خالد الوهبى حدثنا زياد يعنى الجصاص عن أبى عثمان قال : قلت يا أبا هريرة سمعت من إخوانى بالبصرة أنك تقول سمعت نبى الله ﷺ يقول « إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة » قال أبو هريرة بل سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية (فما متاع الحياة فى الدنيا فى الآخرة إلا قليل) فالدنيا ما مضى منها وما بقى منها عند الله قليل . وقال الثورى عن الأعمش فى الآية (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) قال كزاد الراكب وقال عبد العزيز ابن أبى حازم عن أبيه لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة . قال ائتونى بكفنى الذى أكفن فيه أنظر اليه فلما وضع بين يديه نظر اليه فقال أمالى من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول أف لك من دار إن كان كثيرك لقليل ، وإن كان قليلك لقصير ، وإن كنا منك لفى غرور . ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما) قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ حيا من العرب فتثاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) أى لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم) (ولا تضروه شيئا) أى ولا تضروا الله شيئا بتوليكم عن الجهاد ، ونكولكم وتثاقلكم عنه (والله على كل شىء قدير) أى قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم ، وقد قيل إن هذه الآية وقوله (انفروا خفافا وثقالا) وقوله (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) انهن منسوخات بقوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن وزيد ابن أسلم ورده ابن جرير وقال إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك فلو تركوه لعوقبوا عليه وهذا له اتجاه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى (إلا تنصروه) أى تنصروا رسوله فان الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره (إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين) أى عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربا صحبة صديقه وصاحبه أبى بكر بن أبى قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا فى آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة فجعل أبو بكر رضى الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يسكنه ويثبته ويقول « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » كما قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبى ﷺ ونحن فى الغار لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال فقال « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » أخرجاه فى الصحيحين ، ولهذا قال تعالى (فأنزل الله سكينته عليه) أى تأييده ونصره عليه أى على الرسول ﷺ فى أشهر القولين وقيل على أبى بكر ، وروى عن ابن عباس وغيره قالوا لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة وهذا لا ينافى تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ولهذا قال (وأيده بجنود لم تروها) أى الملائكة (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا) قال ابن عباس يعنى بكلمة الذين كفروا الشرك وكلمة الله هى لا إله إلا الله . وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله

عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » وقوله (والله عزيز) أى فى انتقامه وانتصاره ، منيع الجناب لا يضام من لاذ ببابه ، واحتمى بالتمسك بخطابه (حكيم) فى أقواله وأفعاله

﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قال سفيان الثورى عن أبيه عن أبى الضحى مسلم بن صبيح : هذه الآية (انفروا خفافا وثقالا) أول ما نزل من سورة براءة وقال معتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم حضرمى أنه ذكر له أن ناسا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلا وكبيرا فيقول إنى لا آثم فأنزل الله (انفروا خفافا وثقالا) الآية أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب وحتم على المؤمنين فى الخروج معه على كل حال فى المنشط والمكره والعسر واليسر فقال (انفروا خفافا وثقالا) وقال على بن زيد عن أنس عن أبى طلحة : كهولا وشبانا ما سمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل وفى رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) فقال أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبانا جهزونى يا بنى ، فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات ومع أبى بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها وهكذا روى عن ابن عباس وعكرمة وأبى صالح والحسن البصرى وسهيل ابن عطية ومقاتل بن حيان والشعبى وزيد بن أسلم أنهم قالوا فى تفسير هذه الآية (انفروا خفافا وثقالا) كهولا وشبانا وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغير واحد ، وقال مجاهد شبانا وشيوخا وأغنياء ومساكين وكذا قال أبو صالح وغيره وقال الحكم بن عتيبة : مشاغيل وغير مشاغيل ، وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) يقول انفروا نشاطا وغير نشاط ، وكذا قال قتادة وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد (انفروا خفافا وثقالا) قالوا فإن فينا الثقيل وذا الحاجة والضيعة والشغل والمتيسر به أمره فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا (خفافا وثقالا) أى على ما كان منهم وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى أيضا فى العسر واليسر وهذا كله من مقتضيات العموم فى الآية وهذا اختيار ابن جرير

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافا وركبانا وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافا وثقالا وركبانا ومشاة وهذا تفصيل فى المسألة وقد روى عن ابن عباس ومحمد ابن كعب وعطاء الخراسانى وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) وسيأتى الكلام على ذلك إن شاء الله ، وقال السدى قوله (انفروا خفافا وثقالا) يقول غنيا وفقيرا وقويا وضعيفا فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد وكان عظيما سمينا فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى فنزلت يومئذ (انفروا خفافا وثقالا) فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله فقال (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا أيوب عن محمد قال شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرا ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عاما واحدا قال وكان أبو أيوب يقول قال الله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) فلا أجدنى إلا خفيفا أو ثقيلا . وقال ابن جرير حدثنى سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقية حدثنا جرير حدثنى عبد الرحمن بن ميسرة حدثنى أبو راشد الحرانى قال وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص وقد فصل عنها من عظمه يريد الغزو فقلت له قد أعذر الله إليك فقال أتت علينا سورة البعوث (انفروا خفافا وثقالا) وقال ابن جرير حدثنى حبان بن زيد الشرعى قال نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان واليا على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة فرأيت شيخا

كبيراهما قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت إليه فقلت يا عم لقد أعذر الله إليك قال فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخى استنفرنا الله خفافا وثقالا ألا إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيبقيه وإنما يبتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله عز وجل . ثم رغب تعالى فى النفقة فى سبيله وبذل المهج فى مرضاته ومرضاة رسوله فقال (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى هذا خير لكم فى الدنيا والآخرة لأنكم تغرمون فى النفقة قليلا فيغنمكم الله أموال عدوكم فى الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة فى الآخرة كما قال النبى ﷺ « تكفل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة » ولهذا قال الله تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد حدثنا محمد ابن أبى عدى عن حميد عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « أسلم » قال اجدنى كارها قال « أسلم وإن كنت كارها »

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يقول تعالى موبخا للذين تخلفوا عن النبى ﷺ فى غزوة تبوك وقعدوا بعد ما استأذنوه فى ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك فقال (لو كان عرضا قريبا) قال ابن عباس : غنيمة قريبة (وسفرا قاصداً) أى قريباً أيضا (لاتبعوك) أى لكانوا جاءوا معك لذلك (ولكن بعدت عليهم الشقة) أى المسافة إلى الشام (وسيحلفون بالله) أى لكم إذا رجعتم إليهم (لو استطعنا لخرجنا معكم) أى لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم قال الله تعالى (يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون)

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

قال ابن أبى حاتم . حدثنا أبى حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازى حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة فقال (عفا الله عنك لم أذنت لهم) وكذا قال مورق العجلى وغيره . وقال قتادة عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التى فى سورة النور فرخص له فى أن يأذن لهم إن شاء فقال (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) الآية . وكذا روى عن عطاء الخراسانى ، وقال مجاهد نزلت هذه الآية فى أناس قالوا استأذنوا رسول الله ﷺ فان أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ، ولهذا قال تعالى (حتى يتبين لك الذين صدقوا) أى فى إبداء الأعذار (وتعلم الكاذبين) يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم فى القعود لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكاذب فانهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه فى القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال (لا يستأذنك) أى فى القعود عن الغزو (الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) لأنهم يرون الجهاد قربة ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا (والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك) أى فى القعود ممن لا عذر له (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) أى لا يرجون ثواب الله فى الدار الآخرة على أعمالهم (وارتابت قلوبهم)

أى شكت فى صحة ماجئتهم به (فهم فى ريبهم يترددون) أى يتحيرون يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابته فى شىء فهم قوم حيارى هلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

يقول تعالى (ولو أرادوا الخروج) أى معك إلى الغزو (لأعدوا له عدة) أى لكانوا تأهبوا له (ولكن كره الله انبعاثهم) أى أبغض أن يخرجوا معك قدراً (فثبطهم) أى أخرهم (وقيل اقعدوا مع القاعدين) أى قدرا ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال (لوخرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا) أى لأنهم جبناء مخذولون (ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) أى ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنه (وفيكم سماعون لهم أى مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير . وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير (وفيكم سماعون لهم) أى عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم : وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم بل هذا عام فى جميع الأحوال والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين . وقال محمد بن إسحق كان الذين استأذنوا فيما بلغنى من ذوى الشرف منهم عبد الله بن أبى ابن سلول والجد بن قيس وكانوا أشرافا فى قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال (وفيكم سماعون لهم) ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال (والله عليم بالظالمين) فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف كان يكون ، ولهذا قال تعالى (لوخرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) فأخبر عن حالهم كيف يكون لوخرجوا ومع هذا ماخرجوا كما قال تعالى (ولو ردوا لعادوا لمانهوا عنه وإنهم لكاذبون) وقال تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولوأسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقال تعالى (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا * وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما * ولهديناهم صراطا مستقيم) والآيات فى هذا كثيرة

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾

يقول تعالى محرضا لنبيه عليه السلام على المنافقين (لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور) أى لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم فى كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة : وذلك أول مقدم النبى ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبى وأصحابه هذا أمر قد توجه فدخلوا فى الإسلام ظاهراً ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى (حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك يامحمد (ائذن لى) فى القعود (ولا تفتنى) بالخروج معك بسبب الجوارى من نساء الروم . قال الله تعالى (ألا فى الفتنة سقطوا) أى قدسقطوا فى الفتنة بقولهم هذا كما قال محمد بن إسحق عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذات يوم وهو فى جهازه للجد بن قيس أخى بنى سلمة « هل لك ياجد العام فى جلاد بنى الأصفر ؟» فقال يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ، فو الله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال «قد أذنت لك » ففى الجد بن قيس نزلت هـذه (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) الآية : أى إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم . وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت فى الجد بن قيس ، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بنى سلمة . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ » قالوا الجد بن قيس على أنا نبخله . فقال رسول الله ﷺ « وأى داء أدوأ من البخل ! ولـكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور » وقوله تعـالى (وإن جهنم لمحيطة بالـكافرين) أى لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ * قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعدواة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة أى فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك (وإن تصبك مصيبه يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل) أى قد احترزنا من متابعته من قبل هذا (ويتولوا وهم فرحون) فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم فى عداوتهم هذه التامة فقال (قل) أى لهم (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) أى نحن تحت مشيئته وقدره (هو مولانا) أى سيدنا وملجؤنا (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ * قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾

يقول تعالى (قل) لهم يا محمد (هل تربصون بنا) أى تنتظرون بنا (إلا إحدى الحسنيين) شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم (ونحن نتربص بكم) أى ننتظر بكم (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) أى ننتظر بكم هذا أو هذا إما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) بسبى أو بقتل (فتربصوا إنا معكم متربصون) وقوله تعالى (قل أنفقوا طوعا أو كرها) أى مهما أنفقتم من نفقه طائعين أو مكرهين (لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين) ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم (لأنهم كفروا بالله وبرسوله) أى والأعمال إنما تصح بالإيمان (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) أى ليس لهم قدم صحيح ولا همـة فى العمل (ولا ينفقون نفقة (إلا وهم كارهون) وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا وأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملا لأنه إنما يتقبل من المتقين

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

يقول تعالى لرسـوله ﷺ (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) كما قال تعالى (ولا تمدن عينيك إلى

ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) وقال (أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) وقوله (إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) قال الحسن البصرى بزكاتها والنفقة منها فى سبيل الله ، وقال قتادة هذا من المقدم والمؤخر تقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة . واختار ابن جرير قول الحسن ، وهو القول القوى الحسن وقوله (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) أى ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم . عياذا بالله من ذلك وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم (يحلفون بالله إنهم لمنكم) يمينا مؤكدة (وماهم منكم) أى فى نفس الأمر (ولكنهم قوم يفرقون) أى فهو الذى حملهم على الحلف (لو يجدون ملجأ) أى حصنا يتحصنون به وحرزا يتحرزون به (أو مغارات) وهى التى فى الجبال (أو مدخلا) وهو السرب فى الأرض والنفق قال ذلك فى الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقتادة (لولوا إليه وهم يجمحون) أى يسرعون فى ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغم لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عز ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ولهذا قال (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾

يقول تعالى (ومنهم) أى ومن المنافقين (من يلمزك) أى يعيب عليك (فى) قسم (الصدقات) إذا فرقتها ويتهمك فى ذلك وهم المتهمون المأبونون وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ولهذا (إن أعطوا من الزكاة رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) أى يغضبون لأنفسهم ، قال ابن جريج أخبرنى داود ابن أبى عاصم قال أتى النبى ﷺ بصدقة فقسمها هاهنا وههنا حتى ذهبت قال ووراءه رجل من الأنصار فقال ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية ، وقال قتادة فى قوله (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) يقول ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات ، وذكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهبا وفضة فقال يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم « ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى ؟ » ثم قال نبى الله « احذروا هذا وأشباهه فإن فى أمتى أشباه هذا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم فاذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم » وذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئا ولا أمنعكموه إنما أنا خازن » وهذا الذى ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان من حديث الزهرى عن أبى سلمة عن أبى سعيد فى قصة ذى الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبى صلى الله عليه وسلم حين قسم غنائم حنين فقال له اعدل فإنك لم تعدل فقال « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رآه مقفيا « إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فانهم شر قتلى تحت أديم السماء » وذكر بقية الحديث ثم قال تعالى منبها لهم على ما هو خير لهم من ذلك

فقال (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيما وسرا شريفا حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله (وقالوا حسبنا الله) وكذلك الرغبة إلى الله وحده فى التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره وترك زواجره وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره .

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبى ﷺ ولمزهم إياه فى قسم الصدقات بين تعالى أنه هو الذى قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين كما رواه الإمام أبو داود فى سننه من حديث عبدالرحمن بن زياد بن أنعم وفيه ضعف عن زياد بن نعيم عن زياد بن الحارث الصدائى رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال أعطنى من الصدقة فقال له « إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك » وقد اختلف العلماء فى هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين (أحدهما) أنه يجب ذلك وهو قول الشافعى وجماعة (والثانى) أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع الى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقين وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون ابن مهران ، قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم ، وعلى هذا فانما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعابها . ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا والله أعلم ، وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور ولشدة فاقتهم وحاجتهم ، وعند أبى حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير وهو كما قال أحمد وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية أنبأنا ابن عون عن محمد قال : قال عمر رضى الله عنه : الفقير ليس بالذى لا مال له ، ولكن الفقير الأخلق الكسب قال ابن علية الأخلق المحارف عندنا ، والجمهور على خلافه وروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصرى وابن زيد . واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئا والمسكين هو الذى يسأل ويطوف ويتبع الناس وقال قتادة الفقير من به زمانة والمسكين الصحيح الجسم وقال الثورى عن منصور عن إبراهيم هم فقراء المهاجرين ، قال سفيان الثورى يعنى ولا يعطى الأعراب منها شيئا وكذا روى عن سعيد ابن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى ، وقال عكرمة لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين إنما المساكين أهل الكتاب ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية * فأما الفقراء فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى » رواه أحمد وأبو داود والترمذى ، ولأحمد أيضا والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة مثله وعن عبيد الله بن عدى بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبى ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيهما البصر فرآهما جلدين فقال « إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب » رواه أحمد وأبو داود والنسائى بإسناد جيد قوى وقال ابن أبى حاتم فى كتاب الجرح والتعديل: أبو بكر العبسى قال قرأ عمر رضى الله عنه (إنما الصدقات للفقراء) قال هم أهل الكتاب روى عنه عمر بن نافع سمعت أبى يقول ذلك (قلت) وهذا قول غريب جدا بتقدير صحة الإسناد فان أبا بكر هذا وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته لكنه فى حكم المجهول ، وأما المساكين فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان قالوا فما المسكين يارسول الله ؟ قال « الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا » رواه الشيخان . وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك ولا يجوز

أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقه لما ثبت فى صحيح مسلم عن عبد المطلب من ربيعة بن الحارث أنه انطلق هو والفضل ابن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال « إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد إنما هى أوساخ الناس » . وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام منهم من يعطى ليسلم كما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم صفوان بن أمية من غنائم حنين وقد كان شهدها مشركا قال فلم يزل يعطينى حتى صار أحب الناس إلى بعد أن كان أبغض الناس إلى ، كما قال الإمام أحمد حدثنا زكريا بن عدى أنا ابن المبارك عن يونس عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال : أعطانى رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلى فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلى ، ورواه مسلم والترمذى من حديث يونس عن الزهرى به ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه كما أعطى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل مائة من الإبل وقال « إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله على وجهه فى نار جهنم » . وفى الصحيحين عن أبى سعيد أن عليا بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذهيبة فى تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير ، وقال « أتألفهم » ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه ، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد ، ومحل تفصيل هذا فى كتب الفروع والله أعلم

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ ؟ فيه خلاف ، فروى عن عمر وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم فى البلاد ، وأذل لهم رقاب العباد . وقال آخرون بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم . وأما الرقاب فروى عن الحسن البصرى ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهرى وابن زيد أنهم المكاتبون ، وروى عن أبى موسى الأشعرى نحوه وهو قول الشافعي والليث رضى الله عنهما . وقال ابن عباس والحسن لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة وهو مذهب أحمد ومالك وإسحق أى أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشترى رقبة فيعتقها استقلالا ، وقد ورد فى ثواب الاعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها حتى الفرج بالفرج وماذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال « ثلاثة حق على الله عونهم : الغازى فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف » رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود ، وفى المسند عن البراء بن عازب قال جاء رجل فقال يا رسول الله دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويباعدنى من النار فقال « أعتق النسمة وفك الرقبة » فقال يا رسول الله أوليسا واحدا ؟ قال « لا ، عتق النسمة أن تفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها » وأما الغارمون فهم أقسام فمنهم من تحمل حمالة أو ضمن دينا فلزمه فأجحف بماله أو غرم فى أداء دينه أو فى معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم ، والأصل فى هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالى قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها » قال ثم قال « يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش — أو قال سدادا من عيش — ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قرابة قومه فيقولون لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش — أو قال سدادا من عيش — فما سواهن من المسألة سحت يأكلها صاحبها سحتاً » رواه مسلم ، وعن أبى سعيد قال : أصيب رجل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمار ابتاعها فكثر دينه فقال النبي ﷺ « تصدقوا عليه » فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه فقال النبي صلى الله عليه وسلم لغرمائه « خذوا ماوجدتم وليس لكم إلا ذلك » رواه مسلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد أنبأنا صدقة بن موسى عن أبى عمران الجونى عن قيس بن يزيد عن قاضى المصرين عن عبد الرحمن بن

أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ « يدعو الله لصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقول : يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول يا رب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن أتى على يدى إما حرق وإما سرق وإما وضيعة . فيقول الله صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك اليوم فيدعو الله بشىء فيضعه فى كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته » وأما فى سبيل الله فمنهم الغزاة الذين لاحق لهم فى الديوان وعند الإمام أحمد والحسن وإسحق والحج من سبيل الله للحديث ، وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المجتاز فى بلد ليس معه شىء يستعين به على سفره فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شىء فيعطى من مال الزكاة كفايته فى ذهابه وإيابه . والدليل على ذلك الآية وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة : العامل عليها أو رجل اشتراها بماله أو غارم أو غاز فى سبيل الله أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغنى » وقد رواه السفيانان عن زيد بن أسلم عن عطاء مرسلا ، ولأبى داود عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « لا تحل الصدقة لغنى إلا فى سبيل الله وابن السبيل أو جار فقير فيهدى لك أو يدعوك » وقوله (فريضة من الله) أى حكما مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه (والله عليم حكيم) أى عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده (حكيم) فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به لا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكلام فيه ويقولون (هو أذن) أى من قال له شيئا صدقه فينا ومن حدثه صدقه فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا . روى معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. قال الله تعالى (قل أذن خير لكم) أى هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أى ويصدق المؤمنين (ورحمة للذين آمنوا منكم) أى وهو حجة على الكافرين ولهذا قال (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم)

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

قال قتاده فى قوله تعالى (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الآية . قال ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان مايقول محمد حقا ، لهم شر من الحمير . قال فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن مايقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار قال فسعى بها الرجال إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال « ما حملك على الذى قلت ؟ » فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله الآية . وقوله تعالى (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله) الآية أى ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عزوجل أى شاقه وحاربه وخالفه وكان فى حد والله ورسوله فى حد (فأن له نار جهنم خالداً فيها) أى مهاناً معذبا و(ذلك الخزى العظيم) أى وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله أن لايفشى علينا سرنا هذا ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى

(وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) وقال فى هذه الآية (قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) أى إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم كقوله تعالى (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم - إلى قوله - ولتعرفنهم فى لحن القول) الآية، ولهذا قال قتادة كانت تسمى هذه السورة الفاضحة فاضحة المنافقين

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

قال أبو معشر المدينى عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا قال رجل من المنافقين ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته فقال يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب. فقال (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون - إلى قوله - كانوا مجرمين) وإن رجليه لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال عبد الله بن وهب: أخبرنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل فى المسجد: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن فقال عبد الله بن عمرو أنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبه الحجارة وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون.) الآية. وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا. وقال ابن إسحق وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بنى أمية بن زيد بن عمرو بن عوف ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مخشى بن حمير يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين فقال مخشى بن حمير والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وإننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه وقال رسول الله ﷺ فيما بلغنى لعمار بن ياسر « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا فإن أنكروا فقل بلى قلتم كذا وكذا » فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه فقال وديعة بن ثابت ورسول الله ﷺ واقف على راحلته فجعل يقول وهو آخذ بحقبها يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فقال مخشى بن حمير يا رسول الله قعد بى اسمى واسم أبى فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشى بن حمير فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر. وقال قتادة (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) قال فبينما النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا فقال « على بهؤلاء النفر » فدعاهم فقال « قلتم كذا وكذا » فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب. وقال عكرمة فى تفسير هذه الآية كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول اللهم إنى أسمع آية أنا أعنى بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم فاجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت. قال فأصيب يوم اليمامة فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره. وقوله (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) أى بهذا المقال الذى استهزأتم به (إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة) أى لا يعفى عن جميعكم ولابد من عذاب بعضكم (بأنهم كانوا مجرمين) أى مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

يقول تعالى منكرا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء (يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) أى عن الانفاق فى سبيل الله (نسوا الله)أى نسوا ذكر الله (فنسيهم) أى عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى(فاليوم ننسا كم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) (إن المنافقين هم الفاسقون) أى الخارجون عن طريق الحق الداخلون فى طريق الضلاله وقوله (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نارجهنم) أى على هذا الصنيع الذى ذكر عنهم (خالدين فيها) أى ماكثين فيها مخلدين هم والكفار (هى حسبهم) أى كفايتهم فى العذاب (ولعنهم الله) أى طردهم وأبعدهم (ولهم عذاب مقيم)

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

يقول تعالى أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم وقوله (بخلاقهم) قال الحسن بدينهم وقوله (وخضتم كالذى خاضوا) أى فى الكذب والباطل (أولئك حبطت أعمالهم) أى بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة (فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. قال ابن جرير عن عمرو بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله(كالذين من قبلكم) الآية قال ابن عباس ما أشبه الليلة بالبارحة (كالذين من قبلكم) هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال : «والذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه » قال ابن جريج وأخبرنى زياد بن سعد عن محمد بن زياد بن مهاجر عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع وباعا بباع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب قال « فمن ؟ » وهكذا رواه أبو معشر عن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فذكره وزاد قال أبو هريرة اقرأوا إن شئتم القرآن (كالذين من قبلكم) الآية قال أبو هريرة الخلاق الدين(وخضتم كالذى خاضوا) قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم ؟ قال «فهل الناس إلا هم ؟» وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم) أى ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل (قوم نوح) وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام (وعاد) كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هودا عليه السلام (وثمود) كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا عليه السلام وعقروا الناقة (وقوم إبراهيم) كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم نمروذ بن كنعان بن كوش الكنعانى لعنه الله (وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب عليه السلام

وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة (والمؤتفكات) قوم لوط وقد كانوا يسكنون فى مدائن ، وقال فى الآية الأخرى (والمؤتفكة أهوى) أى الأمة المؤتفكة وقيل أم قراهم وهى سدوم والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبى الله لوطا عليه السلام وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين (أتتهم رسلهم بالبينات) أى بالحجج والدلائل القاطعات (فما كان الله ليظلمهم) أى باهلاكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بارسال الرسل وإزاحة العلل (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا اليه من العذاب والدمار

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) أى يتناصرون ويتعاضدون كما جاء فى الصحيح «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه ، وفى الصحيح أيضا «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقوله (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) كقوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الآية وقوله (ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) أى يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه (ويطيعون الله ورسوله) أى فيما أمر وترك ما عنه زجر (أولئك سيرحمهم الله) أى سيرحمهم الله من اتصف بهذه الصفات (إن الله عزيز) أى يعز من أطاعه فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين (حكيم) فى قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة فانه له الحكمة فى جميع ما يفعله تبارك وتعالى

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم فى (جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى ماكثين فيها أبدا (ومساكن طيبة) أى حسنة البناء طيبة القرار كما جاء فى الصحيحين من حديث أبى عمران الجونى عن أبى بكر بن أبى موسى عبدالله بن قيس الأشعرى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» وبه قال : قال رسول الله ﷺ «إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا فى السماء للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضا» أخرجاه فى الصحيحين ، وفيهما أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان فان حقا على الله أن يدخله الجنة هاجر فى سبيل الله أو حبس فى أرضه التى ولد فيها» قالوا يا رسول الله أفلا نخبر الناس ؟ قال «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن» وعند الطبرانى والترمذى وابن ماجه من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكر مثله . وللترمذى عن عبادة بن الصامت مثله وعن أبى حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ «إن أهل الجنة ليتراءون الغرف فى الجنة كما ترون الكوكب فى السماء» أخرجاه فى الصحيحين ، ثم ليعلم أن أعلى منزلة فى الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجنة كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن ليث عن

كعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا صليتم عليّ فسلوا الله لي الوسيلة » قيل يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال « أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو »

وفي صحيح مسلم من حديث كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ فانه من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لي الوسيلة فانها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله . وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة » وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن علي الأبار حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لي الوسيلة فانه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة » رواه الطبراني . وفي مسند الإمام أحمد من حديث سعد بن مجاهد الطائي عن أبي المدله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال « لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران . من يدخلها ينعم لا ييأس ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » وروي عن ابن عمر مرفوعا نحوه ، وعند الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحق عن النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها » فقام أعرابي فقال يا رسول الله لمن هي ؟ فقال « لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » ثم قال حديث غريب ورواه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري كل منهما عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه وكل من الاسنادين جيد حسن . وعنده أن السائل هو أبو مالك الأشعري فالله أعلم ، وعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ « ألا هل من مشمر إلى الجنة ؟ فان الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية » قالوا نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال « قولوا إن شاء الله » فقال القوم إن شاء الله ، رواه ابن ماجه . وقوله تعالى (ورضوان من الله أكبر) أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم كما قال الإمام مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون يارب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا » أخرجاه من حديث مالك ، وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي حدثنا الفضل الرجائي حدثنا الفريابي عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله عز وجل هل تشتهون شيئا فأزيدكم ؟ قالوا يا ربنا ما خير مما أعطيتنا ؟ قال رضواني أكبر » ورواه البزار في مسنده من حديث الثوري ، وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه صفة الجنة هذا عندي على شرط الصحيح والله أعلم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ * يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار فى الدار الآخرة ، وقد تقدم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) وسيف للكفار أهل الكتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) وسيف للمنافقين (جاهد الكفار والمنافقين) وسيف للبغاة (فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق وهو اختيار ابن جرير ، وقال ابن مسعود فى قوله تعالى (جاهد الكفار والمنافقين) قال بيده فان لم يستطع فليكفهر فى وجهه . وقال ابن عباس أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم ، وقال الضحاك جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم . وعن مقاتل والربيع مثله : وقال الحسن وقتادة ومجاهد : مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال والله أعلم . وقوله (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) قال قتادة نزلت فى عبد الله بن أبى وذلك أنه اقتتل رجلان جهنى وأنصارى فعلا الجهنى على الأنصارى ، فقال عبد الله للأنصار ألا تنصروا أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية : وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة قال فحدثنى عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك رضى الله عنه يقول حزنت على من أصيب بالحرة من قومى فكتب إلىّ زيد ابن أرقم وبلغه شدة حزنى يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار » وشك ابن الفضل فى أبناء أبناء الأنصار قال ابن الفضل فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال هو الذى يقول له رسول الله ﷺ « أوفى الله له بإذنه » قال وذلك حين سمع رجلا من المنافقين يقول ورسول الله ﷺ يخطب لئن كان صادقا فنحن شر من الحمير ، فقال زيد بن أرقم فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار . ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجحده القائل فأنزل الله هذه الآية تصديقا لزيد ، يعنى قوله (يحلفون بالله ما قالوا) الآية رواه البخارى فى صحيحه عن إسماعيل بن أبى أويس عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة — إلى قوله — هذا الذى أوفى الله له بإذنه . ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة وقد رواه محمد بن فليح عن موسى ابن عقبة بإسناده ثم قال : قال ابن شهاب فذكر ما بعده عن موسى عن ابن شهاب . والمشهور فى هذه القصة أنها كانت فى غزوة بنى المصطلق فلعل الراوى وهم فى ذكر الآية وأراد أن يذكر غيرها فذكرها والله أعلم . قال الأموى فى مغازيه : حدثنا محمد بن إسحق عن الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال لما قدم رسول الله ﷺ أخذنى قومى فقالوا إنك امرؤ شاعر فان شئت أن تعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض العلة ثم يكون ذنبا تستغفر الله منه وذكر الحديث بطوله إلى أن قال وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبى صلى الله عليه وسلم الجلاس بن سويد بن الصامت وكان على أم عمير بن سعد وكان عمير فى حجره فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل فى المنافقين قال الجلاس والله لئن كان هذا الرجل صادقا فما يقول لنحن شر من الحمير فسمعها عمير بن سعد فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلىّ وأحسنهم عندى بلاء وأعزهم علىّ أن يصله شىء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنى ولئن كتمتها لتهلكنى ولاحداهما أهون على من الأخرى . فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبى ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب على ، فأنزل الله عز وجل فيه (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) إلى آخر الآية فوقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها

فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع . هكذا جاء هذا مدرجا فى الحديث متصلا به وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحق نفسه لا من كلام كعب بن مالك ، وقال عروة بن الزبير نزلت هذه الآية فى الجلاس ابن سويد بن الصامت أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من حمرنا هذه التى نحن عليها ، فقال مصعب أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت فأتيت النبى ﷺ وخفت أن ينزل فىّ القرآن أو تصيبنى قارعة أو أن أخلط بخطيئته فقلت يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبنى قارعة ما أخبرتك . قال فدعا الجلاس فقال « يا جلاس أقلت الذى قاله مصعب؟» فحلف فأنزل الله (يحلفون بالله ما قالوا) الآية وقال محمد بن إسحق كان الذى قال تلك المقالة فيما بلغنى الجلاس بن سويد بن الصامت فرفعها عليه رجل كان فى حجره يقال له عمير بن سعد فأنكرها فحلف بالله ما قالها فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغنى ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنى أيوب ابن إسحق بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ جالسا فى ظل شجرة فقال « إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم — بعينى الشيطان — فإذا جاء فلا تكلموه » فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ » فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم فأنزل الله عز وجل (يحلفون بالله ما قالوا) الآية وقوله (وهموا بما لم ينالوا) قيل أنزلت فى الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ وقيل فى عبد الله بن أبى هم بقتل رسول صلى الله عليه وسلم ، وقال السدى نزلت فى أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى وإن لم يرض رسول الله ﷺ وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبى ﷺ وهو فى غزوة تبوك فى بعض تلك الليالى فى حال السير وكانوا بضعة عشر رجلا قال الضحاك ففيهم نزلت هذه الآية ، وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال كنت آخذا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثنى عشر راكبا قد اعترضوه فيها قال فانتهرهم رسول الله ﷺ بهم ، وصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله ﷺ « هل عرفتم القوم ؟ » قلنا لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب قال « هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا ؟ » قلنا لا ، قال « أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ فى العقبة فيلقوه منها » قلنا يا رسول الله أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال « لا ، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم — ثم قال — اللهم ارمهم بالدبيلة » قلنا يا رسول الله وما الدبيلة ؟ قال « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك » وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبى الطفيل قال لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينا رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار رضى الله عنه يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله ﷺ لحذيفة « قد قد » حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما هبط نزل ورجع عمار فقال يا عمار « هل عرفت القوم؟ » فقال لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال « هل تدرى ما أرادوا ! » قال الله ورسوله أعلم قال « أرادوا أن ينفروا برسول الله — ﷺ — راحلته فيطرحوه » قال فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال أربعة عشر رجلا فقال إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر قال فعد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا والله ما سمعنا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وما علمنا ما أراد القوم فقال عمار أشهد أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهكذا روى ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة بن الزبير نحو هذا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يمشى الناس فى بطن الوادى وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون وهم متلثمون فأرادوا سلوك العقبة فأطلع الله على مرادهم رسول الله ﷺ فأمر حذيفة فرجع اليهم فضرب وجوه رواحلهم ففزعوا ورجعوا مقبوحين وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعمارا بأسمائهم وما كانوا هموا به من الفتك به صلوات الله وسلامه عليه وأمرهما أن يكتما عليهم ، وكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحق إلا أنه سمى جماعة منهم فالله أعلم . وكذا قد حكى فى معجم الطبرانى قاله البيهقى ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم حدثنا زهير ابن حرب حدثنا أبو أحمد الكوفى حدثنا الوليد بن جميع حدثنا أبو الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس فقال أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة قال فقال له القوم أخبره إذ سألك فقال كنا نخبر أنهم أربعة عشر فان كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم وقد كان فى حرة يمشى فقال إن الماء قليل فلا يسبقنى اليه أحد فوجد قوما قد سبقوه فلعنهم يومئذ وما رواه مسلم أيضا من حديث قتادة عن أبى نضرة عن قيس بن عباد عن عمار بن ياسر قال : أخبرنى حذيفة عن النبى ﷺ أنه قال « فى أصحابى اثنا عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سم الخياط : ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم فى صدورهم » ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذى لا يعلمه غيره أى من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره والله أعلم ، وقد ترجم الطبرانى فى مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ثم روى عن على بن عبد العزيز عن الزبير بن بكار أنه قال : هم معتب بن قشير ووديعة بن ثابت وجد بن عبد الله بن نبتل[1] بن الحارث من بنى عمرو بن عوف والحارث بن يزيد الطائى وأوس ابن قيظى والحارث بن سويد وسعد بن زرارة وقيس بن فهد وسويد بن داعس من بنى الحبلى وقيس بن عمرو بن سهل وزيد بن اللصيت وسلالة بن الحمام وهما من بنى قينقاع أظهروا الاسلام . وقوله تعالى (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) أى وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سعادته ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ للأنصار « ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى » كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن . وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كقوله (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله) الآية وقوله عليه السلام « ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرا فأغناه الله » ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال (فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة) أى وان يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا أى بالقتل والهم والغم والآخرة أى بالعذاب والنكال والهوان والصغار (وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير) أى وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيرا ولا يدفع عنهم شرا

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة عياذا بالله من ذلك وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى أن سبب نزول هذه الآية الكريمة

(١) فى النسخة الحجازية : اس نبيل

فى ثعلبة بن حاطب الأنصارى وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبى حاتم من حديث معان بن رفاعة عن على بن يزيد عن أبى عبدالرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبدالرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أنه قال لرسول الله ﷺ : ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال فقال رسول الله ﷺ « ويحك ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه » قال ثم قال مرة أخرى فقال « أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ؟ فو الذى نفسى بيده لوشئت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت » قال والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ « اللهم ارزق ثعلبة مالا » قال فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ماسواهما ، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهى تنمى كما ينمى الدود حتى ترك الجمعة فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار فقال رسول الله ﷺ « ما فعل ثعلبة ؟ » فقالوا يا رسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال « ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة » وأنزل الله جل ثناؤه (خذ من أموالهم صدقة) الآية ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلا من جهينة ورجلا من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما « مرا بثعلبة وبفلان ــ رجل من بنى سليم ــ فخذا صدقاتهما » فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية ماأدرى ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى فانطلقا وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا مايجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك . فقال بلى فخذوها فان نفسى بذلك طيبة وإنما هى له ، فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال ، أرونى كتابكما فقرأه فقال ماهذه إلا جزية ماهذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيى فانطلقا حتى أتيا النبى ﷺ فلما رآهما قال « ياويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى . فأنزل الله عز وجل (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآية قال وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك ياثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال « إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك » فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله ﷺ « هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى » فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل صدقته رجع إلى منزله فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقبل منه شيئا ، ثم أتى أبا بكر رضى الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلتى من رسول الله وموضعى من الأنصار فاقبل صدقتى فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها فقبض أبو بكر ولم يقبلها . فلما ولى عمر رضى الله عنه أتاه فقال : يا أمير المؤمنين اقبل صدقتى فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك فقبض ولم يقبلها فلما ولى عثمان رضى الله عنه أتاه فقال : اقبل صدقتى فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه فهلك ثعلبة فى خلافة عثمان ، وقوله تعالى (بما أخلفوا الله ماوعدوه) الآية أى أعقبهم النفاق فى قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم كما فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان » وله شواهد كثيرة والله أعلم . وقوله (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم) الآية يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها فان الله أعلم بهم من أنفسهم لأنه تعالى علام الغيوب أى يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ماظهر ومابطن

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ

اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وهذا أيضا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم فى جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مراء وإن جاء بشىء يسير قالوا إن الله لغنى عن صدقة هذا ، كما روى البخارى حدثنا عبيد الله بن سعيد حدثنا أبو النعمان البصرى حدثنا شعبة عن سليمان عن أبى وائل عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل (١) على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشىء كثير فقالوا مرائى وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغنى عن صدقة هذا . فنزلت (الذين يلمزون المطوعين) الآية . وقد رواه مسلم أيضاً فى صحيحه من حديث شعبة به ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد الجريرى عن أبى السليل قال : وقف علينا رجل فى مجلسنا بالبقيع فقال : حدثنى أبى أو عمى أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول « من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة » قال فحللت من عمامتى لوثا أو لوثين وأنا أريد أن أتصدق بهما فأدركنى ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتى . فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلا أشد منه سوادا ولا أصغر منه ولا أذم ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها فقال يا رسول الله أصدقة ؟ قال « نعم » قال دونك هذه الناقة قال فلمزه رجل فقال هذا يتصدق بهذه فوالله لهى خير منه . قال فسمعها رسول الله ﷺ فقال « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ثم قال « ويل لأصحاب المئين من الإبل » ثلاثا قالوا إلا من يا رسول الله ؟ قال « إلا من قال بالمال هكذا وهكذا » وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال « قد أفلح المزهد المجهد » ثلاثا . المزهد فى العيش المجهد فى العبادة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية قال جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام فقال بعض المنافقين والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء ، وقالوا إن الله ورسوله الغنيان عن هذا الصاع . وقال العوفى عن ابن عباس إن رسول الله خرج إلى الناس يوما فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر فقال يارسول الله هذا صاع من تمر بت ليلتى أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره فى الصدقات فسخر منه رجال وقالوا إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعون بصاعك من شىء ، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ هل بقى أحد من أهل الصدقات ؟ فقال رسول الله ﷺ « لم يبق أحد غيرك » فقال له عبد الرحمن بن عوف فان عندى مائة أوقية من ذهب فى الصدقات فقال له عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أمجنون أنت ؟ قال ليس بى جنون قال أفعلت ما فعلت ؟ قال نعم مالى ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربى وأما أربعة آلاف فلى فقال له رسول الله ﷺ « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » ولمزه المنافقون فقالوا والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون إنما كان به متطوعا فأنزل الله عز وجل عذره وعذر صاحبه المسكين الذى جاء بالصاع من التمر فقال تعالى فى كتابه (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات) الآية ، وكذا روى عن مجاهد وغير واحد وقال ابن إسحق كان من المطوعين من المؤمنين فى الصدقات عبد الرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف درهم وعاصم بن عدى أخو بنى العجلان وذلك أن رسول الله ﷺ رغب فى الصدقة وحض عليها فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدى وتصدق بمائة وسق من تمر فلمزوهما وقالوا ما هذا إلا رياء وكان الذى تصدق بجهده أبو عقيل أخو بنى أنيف الاراشى حليف بنى عمرو بن عوف أتى بصاع من تمر فأفرغه فى الصدقة فتضاحكوا به وقالوا إن الله لغنى عن صاع أبى عقيل وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا طالوت بن عباد حدثنا أبو عوانة عن عمرو بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « تصدقوا فإنى أريد أن أبعث بعثا » قال فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال يا رسول الله عندى أربعة آلاف ألفين أقرضهما ربى وألفين لعيالى فقال رسول الله ﷺ « بارك الله لك فيما أعطيت

---

(١) أى نؤاجر أنفسنا فى الحمل ، وفى رواية عنده فى التفسير نتحامل أى يحمل بعضنا لبعض بالأجرة .

وبارك لك فيما أمسكت » وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر فقال يا رسول الله أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربى وصاع لعيالى قال فلمزه المنافقون وقالوا ما أعطى الذى أعطى ابن عوف إلا رياء وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأنزل الله (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم) الآية ثم رواه عن أبى كامل عن أبى عوانة عن عمرو بن أبى سلمة عن أبيه مرسلا قال ولم يسنده أحد إلا طالوت ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة حدثنى خالد ابن يسار عن ابن أبى عقيل عن أبيه قال بت أجر الجرير على ظهرى على صاعين من تمر فانقلبت بأحدهما إلى أهلى يتبلغون به وجئت بالآخر أتقرب إلى رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته فقال « انثره فى الصدقة » قال فسخر القوم وقالوا لقد كان الله غنيا عن صدقة هذا المسكين فأنزل الله (الذين يلمزون المطوعين) الآيتين ، وكذا رواه الطبرانى من حديث زيد بن الحباب به وقال اسم أبى عقيل حباب ويقال عبد الرحمن بن عبدالله بن ثعلبة وقوله (فيسخرون منهم سخر الله منهم) هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين لأن الجزاء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصارا للمؤمنين فى الدنيا وأعد للمنافقين فى الآخرة عذابا أليما لأن الجزاء من جنس العمل

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم لأن العرب فى أساليب كلامها تذكر السبعين فى مبالغة كلامها ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها ، وقيل بل لها مفهوم كما روى العوفى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « لما نزلت هذه الآية أسمع ربى قد رخص لى فيهم فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم » فقال الله من شدة غضبه عليهم (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) الآية . وقال الشعبى لما ثقل عبد الله بن أبى انطلق ابنه إلى النبى ﷺ فقال إن أبى قد احتضر فأحب أن تشهده وتصلى عليه فقال له النبى ﷺ « ما اسمك » قال الحباب بن عبد الله قال « بل أنت عبد الله بن عبد الله إن الحباب اسم شيطان » ، فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلى عليه فقيل له : أتصلى عليه ؟ فقال « إن الله قال (إن تستغفر لهم سبعين مرة) ولأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين » وكذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد وقتادة بن دعامة ورواه ابن جرير بأسانيده

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۞ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى ذاما للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك وفرحوا بقعودهم بعد خروجه (وكرهوا أن يجاهدوا) معه (بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا) أى بعضهم لبعض (لا تنفروا فى الحر) وذلك أن الخروج فى غزوة تبوك كان فى شدة الحر عند طيب الظلال والثمار فلهذا قالوا (لا تنفروا فى الحر) قال الله تعالى لرسوله ﷺ (قل) لهم (نار جهنم) التى تصيرون إليها بمخالفتكم (أشد حرا) مما فررتم منه من الحر بل أشد حرا من النار كما قال الإمام مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نار بنى آدم التى توقدونها جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » فقالوا يا رسول الله إن كانت لكافية فقال

« فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك به ، وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت فى البحر مرتين ولولا ذلك ماجعل الله فيها منفعة لأحد » وهذا أيضا إسناده صحيح ، وقد روى الإمام أبوعيسى الترمذى وابن ماجه عن ابن عباس الدورى ، وعن يحيى بن أبى بكير عن شريك عن عاصم عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء كالليل المظلم » ثم قال الترمذى لا أعلم أحداً رفعه غير يحيى . كذا قال ، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن إبراهيم بن محمد عن محمد بن الحسين بن مكرم عن عبيد الله بن سعيد عن عمه عن شريك وهو ابن عبدالله النخعى به ، وروى أيضا ابن مردويه من رواية مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (نارا وقودها الناس والحجارة) قال « أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى احمرت وألف عام حتى اسودت فهى سوداء كالليل لايضىء لهبها » ، وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث تمام بن نجيح وقد اختلف فيه عن الحسن عن أنس رفعه « لو أن شرارة بالمشرق - أى من نار جهنم - لوجد حرها من بالمغرب » وروى الحافظ أبو يعلى عن إسحق بن أبى إسرائيل عن أبى عبيدة الحداد عن هشام بن حسان عن محمد بن شبيب عن جعفر بن أبى وحشية عن سعيد بن جبير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لو كان فى هـذا المسجد مائة ألف أو يزيدن وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه » غريب وقال الأعمش عن أبى إسحق عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار جهنم يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل لايرى أن أحدا من أهل النار أشد عذابا منه وإنه أهونهم عذابا » أخرجاه فى الصحيحين من حديث الأعمش ، وقال مسلم أيضا حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا يحيى بن أبى كثير حدثنا زهير بن محمد عن سهيل بن أبى صالح عن النعمان بن أبى عياش عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله ﷺ قال « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه » وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن ابن عجلان سمعت أبى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « إن أدنى أهل النار عذابا رجل يجعل له نعلان يغلى منهما دماغه » وهذا إسناد جيد قوى رجاله على شرط مسلم والله أعلم ، والأحاديث والآثار النبوية فى هذا كثيرة ، وقال الله تعالى فى كتابه العزيز (كلا إنها لظى نزاعة للشوى) وقال تعالى (يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) وقال تعالى (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) أى لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول فى سبيل الله فى الحر ليتقوا به من حر جهنم الذى هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم كما قال الآخر

* كالمستجير من الرمضاء بالنار *

وقال الآخر

عمرك بالحمية أفنيته * خوفا من البارد والحار
وكان أولى لك أن تتقى * من المعاصى حذر النار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعدا هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا (فليضحكوا قليلا) الآية قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا فاذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لاينقطع أبدا ، وكذا قال أبو رزين والحسن وقتادة والربيع بن خثيم وعون العقيلى وزيد بن أسلم ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبى خداش حدثنا محمد بن جبير عن ابن المبارك عن عمران بن زيد حدثنا يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يا أيها الناس ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فان أهـل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء

فتقرح العيون فلو أن سفناً أزجيت فيها لجرت » ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن يزيد الرقاشي به ، وقال الحافظ أبوبكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن العباس حدثنا حماد الجزري عن زيد بن رفيع رفعه قال إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ثم بكوا القيح زماناً قال فتقول لهم الخزنة يامعشر الأشقياء تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا هل تجدون اليوم من تستغيثون به ? قال فيرفعون أصواتهم يا أهل الجنة يامعشر الآباء والأمهات والأولاد خرجنا من القبور عطاشا وكنا طول الموقف عطاشا ونحن اليوم عطاش فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، فيدعون أربعين سنة لايجيبهم ثم يجيبهم (إنكم ما كثون) فييأسون من كل خير »

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام (فإن رجعك الله) أي ردك الله من غزوتك هذه (إلى طائفة منهم) قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا (فاستأذنوك للخروج) أي معك إلى غزوة أخرى (فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا) أي تعزيرا لهم وعقوبة ثم علل ذلك بقوله (إنكم رضيتم بالقعود أول مرة) وهذا كقوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) الآية فإن جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها كقوله في عمرة الحديبية (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها) الآية . وقوله تعالى (فاقعدوا مع الخالفين) قال ابن عباس أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة : وقال قتادة (فاقعدوا مع الخالفين) أي مع النساء ، قال ابن جرير وهذا لايستقيم لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون ولو أريد النساء لقال فاقعدوا مع الخوالف أو الخالفات ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبرأ من المنافقين وأن لايصلى على أحد منهم إذا مات وأن لايقوم على قبره ليستغفر له أو يدعوله لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين كما قال البخاري : حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال يارسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما خيرني الله فقال (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وسأزيده على السبعين » قال إنه منافق . قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل آية (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي أسامة حماد بن أسامة به ، ثم رواه البخاري عن إبراهيم بن المنذر عن أنس بن عياض عن عبيد الله وهو ابن عمر العمري به وقال فصلى عليه وصلينا معه وأنزل الله (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً) الآية . وهكذا رواه الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله به ، وقد روى من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضا بنحو من هذا فقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن إسحق حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لما توفي عبد الله بن أبي دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام اليه فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره فقلت يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن

أبى القائل يوم كذا كذا وكذا — يعدد أيامه — ، قال ورسـول الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرت عليه قال « أخرعنى ياعمر ، إنى خيرت فاخترت ، قد قيل لى (استغفر لهم) الآية . لو أعلم أنى لوزدت على السبعين غفر له لزدت » قال ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه قال فعجبت من جرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم . قال فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية . فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل . وهكذا رواه الترمذى فى التفسير من حديث محمد بن إسحق عن الزهرى به وقال حسن صحيح ، ورواه البخارى عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن الزهرى به فذكر مثله وقال « أخرعنى يا عمر » فلما أكثرت عليه قال « إنى خيرت فاخترت ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » قال فصلى عليه رسول الله ثم انصرف فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره) الآية فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد ابن عبيد حدثنا عبد الملك عن ابن الزبير عن جابر قال : لما مات عبد الله بن أبى أتى ابنه النبى ﷺ فقال يارسول الله إنك إن لم تأته لم نزل نعير بهذا فأتاه النبى ﷺ فوجده قد أدخل فى حفرته فقال « أفلا قبل أن تدخلوه ، » فأخرج من حفرته وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه ؛ ورواه النسائى عن أبى داود الحرانى عن يعلى بن عبيد عن عبد الملك وهو ابن أبى سليمان به ؛ وقال البخارى حدثنا عبد الله بن عثمان أخبرنا ابن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله قال : أتى النبى ﷺ عبد الله بن أبى بعد ما أدخل فى قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم

وقد رواه أيضاً فى غير موضع مسلم والنسائى من غير وجه عن سفيان بن عيينة به. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو ابن عبد الخالق البزار فى مسنده حدثنا عمرو بن على حدثنا يحيى حدثنا مجالد حدثنا عامر حدثنا جابر ح وحدثنا يوسف بن موسى حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسى حدثنا مجالد عن الشعبى عن جابر قال لما مات رأس المنافقين قال يحيى بن سعيد بالمدينة فأوصى أن يصلى عليه النبى ﷺ فجاء ابنه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن أبى أوصى أن يكفن بقميصك وهذا الكلام فى حديث عبد الرحمن بن مغراء قال يحيى فى حديثه فصلى عليه وألبسه قميصه فأنزل الله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره) وزاد عبد الرحمن : وخلع النبى ﷺ قميصه فأعطاه إياه ومشى فصلى عليه وقام على قبره فأتاه جبريل عليه السلام لما ولى قال (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره) وإسناده لابأس به وما قبله شاهد له

وقال الإمام أبو جعفر الطبرى حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشى عن أنس أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلى على عبد الله بن أبى فأخذ جبريل بثوبه وقال (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره) ورواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده من حديث يزيد الرقاشى وهو ضعيف . وقال قتادة أرسل عبد الله بن أبى إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له النبى صلى الله عليه وسلم « أهلكك حب يهود » قال يارسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لى ولم أرسل إليك لتؤنبنى ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره فأنزل الله عزوجل (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية ، وقد ذكر بعض السلف أنه إنما كساه قميصه لأن عبد الله بن أبى لما قدم العباس طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبى لأنه كان ضخما طويلا ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له فالله أعلم . ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلى على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره كما قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبى عن أبيه حدثنى عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعى إلى جنازة سأل عنها ، فان أثنى عليها خيرا قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها « شأنكم بها » ولم يصل

عليها ، وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين قد أخبره بهم رسول الله ﷺ ، ولهذا كان يقال له صاحب السر الذى لا يعلمه غيره أى من الصحابة . وقال أبو عبيد فى كتاب الغريب فى حديث عمر أنه أراد أن يصلى على جنازة رجل فمرزه حذيفة كأنه أراد أن يصده عن الصلاة عليها . ثم حكى عن بعضهم أن المرز بلغة أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع ، ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم كان هذا الصنيع من أكبر القربات فى حق المؤمنين فشرع ذلك ، وفى فعله الأجر الجزيل كما ثبت فى الصحاح وغيرها من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان » قيل وما القيراطان ؟ قال « أصغرهما مثل أحد » وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فروى أبو داود حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى أخبرنا هشام عن عبد الله بن بحير عن هانىء وهو أبو سعيد البربرى مولى عثمان بن عفان عن عثمان رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسأل » انفرد بأخراجه أبو داود رحمه الله

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد والمنه

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ * رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

يقول تعالى منكرا وذاما للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول واستأذنوا الرسول فى القعود وقالوا (ذرنا نكن مع القاعدين) ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود فى البلد مع النساء وهن الخوالف بعد خروج الجيش فاذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاما كما قال تعالى عنهم فى الآية الأخرى (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) أى علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوى فى الأمن ، وفى الحرب أجبن شىء وكما قال الشاعر

أفى السلم أعيارا جفاء وغلظة وفى الحرب أشباه النساء الفوارك ؟

وقال تعالى فى الآية الأخرى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ، فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) الآية ، وقوله (وطبع على قلوبهم) أى بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول فى سبيل الله (فهم لا يفقهون) أى لا يفهمون مافيه صلاح لهم فيفعلوه ولا مافيه مضرة لهم فيجتنبوه

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين ومالهم فى آخرتهم فقال (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا) إلى آخر الآيتين من بيان حالهم وما لهم ، وقوله (وأولئك لهم الخيرات) أى فى الدار الآخرة فى جنات الفردوس والدرجات العلى

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ثم بين تعالى حال ذوى الأعذار فى ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة . قال الضحاك عن ابن عباس إنه كان يقرأ (وجاء المعذرون) بالتخفيف ويقول هم أهل العذر . وكذا روى ابن عيينة عن حميد عن مجاهد سواء قال ابن إسحق وبلغنى أنهم نفر من بنى غفار خفاف بن إيماء بن رخصة وهذا القول هو الأظهر فى معنى الآية لأنه قال بعد هذا (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) أى لم يأتوا فيعتذروا ، وقال ابن جريج عن مجاهد (وجاء المعذرون من الأعراب) قال نفر من بنى غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله ، وكذا قال الحسن وقتادة ومحمد بن إسحق والقول الأول أظهر والله أعلم لما قدمنا من قوله بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) أى وقعد آخرون من الأعراب عن المجىء للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم)

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ثم بين تعالى الأعذار التى لا حرج على من قعد معها عن القتال فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف فى التركيب الذى لا يستطيع معه الجلاد فى الجهاد ومنه العمى والعرج ونحوهما ولهذا بدأ به ومنها ما هو عارض بسبب مرض عنّ له فى بدنه شغله عن الخروج فى سبيل الله أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا فى حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم وهم محسنون فى حالهم هذا ولهذا قال (ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) وقال سفيان الثورى عن عبد العزيز بن رفيع عن أبى ثمامة رضى الله عنه قال: قال الحواريون يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله ؟ قال الذى يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ بالذى للآخرة ثم تفرغ للذى للدنيا ، وقال الأوزاعى خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر من حضر ألستم مقرين بالاساءة ؟ قالوا اللهم نعم فقال اللهم إنا نسمعك تقول (ما على المحسنين من سبيل) اللهم وقد أقررنا بالاساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا ، وقال قتادة نزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو المزنى حدثنا ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى حدثنا ابن جابر عن ابن فروة عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن زيد بن ثابت قال كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة فإنى لواضع القلم على أذنى إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال كيف بى يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت (ليس على الضعفاء) الآية وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزنى فقالوا يا رسول الله احملنا فقال لهم « والله لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وهم يبكون وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملا . فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه فقال (ليس على الضعفاء) إلى قوله (فهم لا يعلمون) وقال مجاهد فى قوله (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) نزلت فى بنى مقرن من مزينة ، وقال محمد بن كعب كانوا سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عوف ومن بنى واقف حرمى بن عمرو ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ومن بنى المعلى فضل الله ومن بنى سلمة عمرو بن عتبة وعبد الله بن عمرو المزنى ، وقال محمد بن إسحق فى سياق غزوة تبوك ثم إن رجالا من

المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف سالم ابن عمير وعلية بن زيد أخو بنى حارثة وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بنى مازن بن النجار وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بنى سلمة وعبد الله بن المغفل المزنى وبعض الناس يقول بل هو عبد الله بن عمرو المزنى وحرمى بن عبد الله أخو بنى واقف وعياض بن سارية الفزارى فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فقال (لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمرو بن الأودى حدثنا وكيع عن الربيع عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ «لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا ولا نلتم من عدو نيلا إلا وقد شركوكم فى الأجر» ثم قرأ (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه) الآية ، وأصل الحديث فى الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال «إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ولا سرتم سيرا إلا وهم معكم» قالوا وهم بالمدينة ؟ قال «نعم حبسهم العذر» وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ «لقد خلفتم بالمدينة رجالا ما قطعتم واديا ولا سلكتم طريقا إلا شركوكم فى الأجر حبسهم المرض» ورواه مسلم وابن ماجه من طرق عن الأعمش به ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون فى القعود وهم أغنياء وأنبهم فى رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف فى الرحال (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون)

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم (قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم) أى لن نصدقكم (قد نبأنا الله من أخباركم) أى قد أعلمنا الله أحوالكم (وسيرى الله عملكم ورسوله) أى سيظهر أعمالكم للناس فى الدنيا (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ويجزيكم عليها ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقارا لهم إنهم رجس أى خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم ومأواهم فى آخرتهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون أى من الآثام والخطايا وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله فان الفسق هو الخروج ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للافساد ، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أخبر تعالى أن فى الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر أى

أحرى أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله كما قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند فقال الأعرابي والله إن حديثك ليعجبني ،وإن يدك لتريبني. فقال زيد مايريبك من يدي إنها الشمال ؟ فقال الأعرابي والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال ، فقال زيد بن صوحان: صدق الله (الأعراب أشد كفرا ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن أبي موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري به ، وقال الترمذي حسن غريب لانعرفه إلا من حديث الثوري ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضي ، قال « لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي » لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن فهم ألطف أخلاقا من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء . (حديث الأعرابي في تقبيل الولد) قال حديث مسلم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا حدثنا أبو أسامة وابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا نعم قالوا لكنا والله ما نقبل فقال رسول الله ﷺ « وأملك[1] إن كان الله نزع منكم الرحمة » وقال ابن نمير « من قلبك الرحمة » وقوله (والله عليم حكيم) أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والايمان والكفر والنفاق لايسئل عما يفعل لعلمه وحكمته ، وأخبر تعالى أن منهم (من يتخذ ماينفق) أي في سبيل الله (مغرما) أي غرامة وخسارة (ويتربص بكم الدوائر) أي ينتظر بكم الحوادث والآفات (عليهم دائرة السوء) أي هي منعكسه عليهم والسوء دائر عليهم (والله سميع عليم) أي سميع لدعاء عباده عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان ، وقوله (ومن الأعرب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) هذا هو القسم الممدوح من الأعراب وهم الذين يتخذون ماينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم (ألا إنها قربة لهم) أي ألا إن ذلك حاصل لهم (سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم)

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم ، قال الشعبي : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية ، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال محمد بن كعب القرظي : مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية ، (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) فأخذ عمر بيده فقال : من أقراك هذا ؟ فقال أبي بن كعب فقال لاتفارقني حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال نعم . قال : وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم . قال لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لايبلغها أحد بعدنا فقال أبي تصديق هذه الآيه في أول سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) وفي سورة الحشر (والذين جاءوا من بعدهم) الآية وفي الأنفال (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم) الآية رواه ابن جرير قال وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع الأنصار عطفا على والسابقون الأولون ، فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

---

(١) وفي البخاري أو أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة

بإحسان : فياويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أوسب بعضهم ، ولاسيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه فان الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم . عياذا بالله من ذلك . وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضى الله عنهم ؟ وأما أهل السنة فانهم يترضون عمن رضى الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله ويوالون من يوالى الله ويعادون من يعادى الله وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدون، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن فى أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون ، وفى أهل المدينة أيضا منافقون (مردوا على النفاق) أى مرنوا واستمروا عليه ومنه يقال شيطان مريد ومارد ويقال تمرد فلان على الله أى عتا وتجبر ، وقوله (لاتعلمهم نحن نعلمهم) لاينافى قوله تعالى (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول) لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين وقد كان يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا وإن كان يراه صباحا ومساء ، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم عن رجل عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال قلت : يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة فقال « لتأتينكم أجوركم ولو كنتم فى جحر ثعلب » وأصغى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه فقال « إن فى أصحابى منافقين » ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بمالا صحة له ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذى سمعه جبير بن مطعم ، وتقدم فى تفسير قوله (وهموا بمالم ينالوا) أنه صلى الله عليه وسلم أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشرة أو خمسة عشر منافقاً وهذا تخصيص لايقتضى أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم والله أعلم ، وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عمر البيروتى من طريق هشام بن عمار حدثنا صدقة بن خالد حدثنا ابن جابر حدثنى شيخ ببيروت يكنى أبا عمر أظنه حدثنى عن أبى الدرداء أن رجلا يقال له حرملة أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه : والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل له لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وارزقه حبى وحب من يحبنى ، وصير أمره إلى خير » فقال يا رسول الله : إنه كان لى أصحاب من المنافقين وكنت رأسا فيهم أفلا آتيك بهم ؟ قال « من أتانا استغفرنا له ، ومن أصر فالله أولى به ، ولا تخرقن على احد سترا » قال وكذا رواه أبو أحمد الحاكم عن أبى بكر الباغندى عن هشام بن عمار به ، وقال عبدالرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى هذه الآية أنه قال ما بال أقوام يتكلفون علم الناس فلان فى الجنة وفلان فى النار فاذا سألت أحدهم عن نفسه قال لا أدرى لعمرى أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الأنبياء قبلك ، قال نبى الله نوح عليه السلام (وما علمى بما كانوا يعملون) وقال نبى الله شعيب عليه السلام (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (لا تعلمهم نحن نعلمهم) وقال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس فى هذه الآية قال : قام رسول صلى الله تعالى عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال « اخرج يا فلان فإنك منافق ، وأخرج يا فلان فانك منافق » فأخرج من المسجد ناسا منهم فضحهم ، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا ، واختبؤا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم، فجاء عمر فدخل المسجد فاذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم : قال ابن عباس فهذا

العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد ، والعذاب الثانى عذاب القبر ، وكذا قال الثورى عن السدى عن أبى مالك نحو هذا ، وقال مجاهد فى قوله (سنعذبهم مرتين) يعنى القتل والسبى ، وقال فى رواية بالجوع وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب عظيم ، وقال ابن جريج عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون إلى عذاب عظيم النار ، وقال الحسن البصرى عذاب فى الدنيا وعذاب فى القبر ، وقال عبد الرحمن بن زيد : أما عذاب فى الدنيا فالأموال والأولاد وقرأ قوله تعالى (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) فهذه المصائب لهم عذاب وهى للمؤمنين أجر ، وعذاب فى الآخرة فى النار (ثم يردون إلى عذاب عظيم) قال النار ، وقال محمد بن إسحق (سنعذبهم مرتين) قال هو فيما بلغنى ماهم فيه من أمر الاسلام وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة ، ثم عذابهم فى القبور إذا صاروا اليها ، ثم العذاب العظيم الذى يردون اليه عذاب الآخرة والخلد فيه ، وقال سعيد عن قتادة فى قوله (سنعذبهم مرتين) عذاب الدنيا وعذاب القبر (ثم يردون إلى عذاب عظيم) وذكر لنا أن نبى الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثنى عشر رجلا من المنافقين فقال ستة منهم تكفيهم الدبيلة سراج من نار جهنم يأخذ فى كتف أحدهم حتى يفضى إلى صدره ، وستة يموتون موتا . وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم نظر إلى حذيفة فإن صلى عليه وإلا تركه وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة أنشدك الله أمنهم أنا ؟ قال لا ولا أومن منها أحدا بعدك

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيبا وشكا شرع فى بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق فقال (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) أى أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه ، وهذه الآية وإن كانت نزلت فى أناس معينين إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين ، وقد قال مجاهد إنها نزلت فى أبى لبابة لما قال لبنى قريظة إنه الذبح وأشار بيده إلى حلقه ، وقال ابن عباس (وآخرون) نزلت فى أبى لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فقال بعضهم أبو لبابة وخمسة معه ، وقيل وسبعة معه ، وقيل وتسعة معه ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أنزل الله هذه الآية (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم ، وقال البخارى حدثنا مؤمل بن هشام حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عوف حدثنا أبو رجاء حدثنا سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا « أتانى الليلة آتيان فابتعثانى فانتهيا بى إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء قالا لهم اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة ، قالا لى هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم » هكذا رواه البخارى مختصرا فى تفسير هذه الآية

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير فى أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ولهذا اعتقد بعض مانعى الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون وإنما كان هذا خاصا بالرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا احتجوا بقوله

تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية ، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبوبكر الصديق وسائر الصحابة وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال الصديق : والله لو منعونى عناقا — وفى رواية عقالا — كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه ، وقوله (وصل عليهم) أى ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان النبى ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبى بصدقته فقال « اللهم صل على آل أبى أوفى » وفى الحديث الآخر أن امرأة قالت يارسول الله صل علىّ وعلى زوجى فقال « صلى الله عليك وعلى زوجك » وقوله (إن صلاتك سكن لهم) قرأ بعضهم صلواتك على الجمع وآخرون قرأوا إن صلاتك على الافراد (سكن لهم) قال ابن عباس رحمة لهم ، وقال قتادة وقار ، وقوله (والله سميع) أى لدعائك (عليم) أى بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له ، قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا أبو العميس عن أبى بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن لحذيفة عن أبيه أن النبى ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابت ولده وولد ولده ، ثم رواه عن أبى نعيم عن مسعر عن أبى بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن لحذيفة قال مسعر وقد ذكره مرة عن حذيفة إن صلاة النبى ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده . وقوله (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها ، وأخبر تعالى أن كل من تاب اليه تاب عليه ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فان الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد ، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ كما قال الثورى ووكيع كلاهما عن عباد بن منصور عن القاسم بن محمد أنه سمع أباهريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد » وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) وقوله (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) وقال الثورى والأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب عن عبد الله بن أبى قتادة قال : قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه إن الصدقة تقع فى يد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل ثم قرأ هذه الآية (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) وقد روى ابن عساكر فى تاريخه فى ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكى الدمشقى وأصله حمصى وكان أحد الفقهاء روى عن معاوية وغيره ، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكى الحمصى قال غزا الناس فى زمان معاوية رضى الله عنه وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فغل رجل من المسلمين مائة دينار رومية . فلما قفل الجيش ندم وأتى الأمير فأبى أن يقبلها منه وقال : قد تفرق الناس ولن أقبلها منك حتى تأتى الله بها يوم القيامة فجعل الرجل يستقرى الصحابة فيقولون له مثل ذلك ، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه فأبى عليه فخرج من عنده وهو يبكى ويسترجع فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكى فقال له مايبكيك ؟ فذكر له أمره ، فقال له أومطيعىّ أنت ؟ فقال نعم ، فقال اذهب إلى معاوية فقل له اقبل منى خمسك فادفع اليه عشرين دينارا وانظر إلى الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش فإن الله يقبل التوبة عن عباده وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ، ففعل الرجل فقال معاوية رضى الله عنه لأن أكون أفتيته بها أحب إلى من كل شىء أملكه ، أحسن الرجل

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قال مجاهد : هذا وعيد يعنى من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين وهذا كائن لامحالة يوم القيامة كما قال (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) وقال تعالى (يوم تبلى السرائر) وقال (وحصل مافى الصدور) وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس فى الدنيا كما قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أنه قال « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان » وقد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر فى البرزخ كما قال أبو داود الطيالسى : حدثنا الصلت ابن دينار عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم فى قبورهم فان كان خيرا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك » ، وقال الإمام أحمد أنبأنا عبد الرزاق عن سفيان عمن سمع أنسا يقول : قال النبى ﷺ « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فان كان خيرا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » وقال البخارى قالت عائشة رضى الله عنها : إذا أعجبك حسن عمل امرىء مسلم فقل (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقد ورد فى الحديث شبيه بهذا قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له ، فان العامل يعمل زمانا من عمره أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملا سيئا ، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملا صالحا ، وإذا أراد الله بعبده خيرا استعمله قبل موته » قالوا يا رسول الله وكيف يستعمله ؟ قال « يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه » تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خلفوا أى عن التوبة وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية قعدوا عن غزوة تبوك فى جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال لا شكا ونفاقا فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل أبو لبابة وأصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية وهى قوله (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار) الآية (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) الآية كما سيأتى بيانه فى حديث كعب بن مالك ، وقوله (إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) أى هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه (والله عليم حكيم) أى عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو ، حكيم فى أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر فى الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان فيه عبادة فى الجاهلية وله شرف فى الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للاسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركى قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع فى إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم

واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومى بعدى شر ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدا طريدا فنالته هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فى ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى صلى الله عليه وسلم فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم مسجد قباء الذى أسس من أول يوم على التقوى . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية هم أناس من الأنصار بنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر ابنوا مسجدا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجنود من الروم وأخرج محمدا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله عز وجل (لاتقم فيه أبدا) إلى قوله (الظالمين) وكذا روى عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء ، وقال محمد بن إسحق بن يسار عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن عمرو بن قتادة وغيرهم قالوا أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى من تبوك حتى نزل بذى أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه فقال « إنى على جناح سفر وحال شغل » أو كما قال رسول الله ﷺ « ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه » فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى أو أخاه عامر بن عدى أخا بلعجلان فقال « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه » فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم . فقال مالك لمعن أنظرنى أخرج إليك بنار من أهلى فدخل أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا) إلى آخر القصة . وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلا خذام بن خالد من بنى عبيد بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، ، وثعلبة بن حاطب من بنى عبيد وموالى بنى أمية بن زيد ومعتب بن قشير من بنى ضبيعة بن زيد ، وأبو حبيبة بن الأزعر من بنى ضبيعة بن زيد وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف وحارثة بن عامر وابناه مجمع بن حارثة وزيد بن حارثة ونبتل الحارث وهم من بنى ضبيعة ومخرج وهم من بنى ضبيعة وبجاد بن عمران وهو من بنى ضبيعة ووديعة بن ثابت وموالى بنى أمية رهط أبى لبابة بن عبد المنذر . وقوله (وليحلفن) أى الذين بنوه (إن أردنا إلا الحسنى) أى ما أردنا ببنيانه إلا خيرا ورفقا بالناس قال الله تعالى (والله يشهد إنهم لكاذبون) أى فيما قصدوا وفيما نووا وإنما بنوه ضرارا لمسجد قباء وكفرا بالله وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الفاسق الذى يقال له الراهب لعنه الله ، وقوله (لا تقم فيه أبدا) نهى له صلى الله عليه

وسلم والأمة تبع له فى ذلك عن أن يقوم فيه أى يصلى أبداً . ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنيانه على التقوى وهى طاعة الله وطاعة رسوله وجمعا لكلمة المؤمنين ومعقلا وموئلا للاسلام وأهله ، ولهذا قال تعالى (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) والسياق إنما هو فى معرض مسجد قباء ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلاه فى مسجد قباء كعمرة » وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور مسجد قباء راكبا وماشياً ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بنى عمرو بن عوف كان جبريل هو الذى عين له جهة القبلة فالله أعلم

وقال أبوداود حدثنا محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن يونس بن الحارث عن إبراهيم بن أبى ميمونة عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « نزلت هذه الآية فى أهل قباء (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ». ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث يونس بن الحارث وهو ضعيف ، وقال الترمذى غريب من هذا الوجه ، وقال الطبرانى حدثنا الحسن بن على العمرى حدثنا محمد بن حميد الرازى حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحق عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال « ماهذا الطهور الذى أثنى الله عليكم » فقال يارسول الله ماخرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو قال مقعدته فقال النبى ﷺ « هوهذا » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن محمد حدثنا أبو أويس حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة الأنصارى أنه حدثه أن النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال « إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ » فقالوا والله يارسول الله مانعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه ، وقال هشيم عن عبد الحميد المدنى عن إبراهيم بن المعلى الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال لعويم بن ساعدة « ماهذا الذى أثنى الله عليكم (فيه رجال يحبون أن يتطهروا ؟) » الآية قالوا يارسول الله إنا نغسل الأدبار بالماء ، وقال ابن جرير حدثنى محمد بن عمارة الأسدى حدثنا محمد ابن سعد عن إبراهيم بن محمد عن شرحبيل بن سعد قال : سمعت خزيمة بن ثابت يقول : نزلت هذه الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) قال كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط

(حديث آخر) قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا يحيى بن آدم حدثنا مالك يعنى ابن مغول سمعت سيارا أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام قال : لقدم قدم رسول الله ﷺ يعنى قباء فقال « إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فى الطهور خيرا أفلا تخبرونى ؟ » يعنى قوله (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) فقالوا يارسول الله إنا نجده مكتوبا علينا فى التوراة الاستنجاء بالماء

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف ، رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير ، وقاله عطية العوفى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبى والحسن البصرى ونقله البغوى عن سعيد بن جبير وقتادة ، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذى فى جوف المدينة هو المسجد الذى أسس على التقوى ، وهذا صحيح . ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمى عن عمران بن أبى أنس عن سهل بن سعد عن أبى بن كعب أن النبى ﷺ قال « المسجد الذى أسس على التقوى مسجدى هذا » تفرد به أحمد

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا ربيعة بن عثمان التيمى عن عمران بن أبى أنس عن سهل بن سعد الساعدى قال : اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال أحدهما

هومسجد رسول الله ﷺ ، وقال الآخر هو مسجد قباء ، فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه فقال « هو مسجدي هذا » تفرد به أحمد أيضا .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ليث عن عمران بن أبي أنس عن سعيد بن أبي سعيد الخدري قال : تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال أحدهما هو مسجد قباء ، وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو مسجدي هذا » تفرد به أحمد

(طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى حدثنا ليث حدثني عمران بن أبي أنس عن ابن أبي سعيد عن أبيه أنه قال : تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال رجل هو مسجد قباء وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو مسجدي » وكذا رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة عن الليث وصححه الترمذي ورواه مسلم كما سيأتي .

(طريق أخرى) قال الإمام أحمد : حدثنا يحي عن أنيس بن أبي يحي حدثني أبي قال سمعت أبا سعيد الخدري قال : اختلف رجلان رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى فقال الخدري هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال العمري هو مسجد قباء فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك فقال « هو هذا المسجد » لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال في ذلك يعني مسجد قباء . (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا يحي عن أنيس قال أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا يحي بن سعيد حدثنا حميد الخراط المدني سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت كيف سمعت أباك يقول(١) في المسجد الذي أسس على التقوى ؟ فقال إني أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيت لبعض نسائه فقلت يا رسول الله : أين المسجد الذي أسس على التقوى ؟ قال فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ثم قال « هو مسجدكم هذا » ثم قال سمعت أباك يذكره ، رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم عن يحي بن سعيد به ، ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره عن حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط به ، وقد قال بأنه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من السلف والخلف وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ، واختاره ابن جرير ، وقوله (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لاشريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على اسباغ الوضوء والتنزه عن ملابسة القاذورات .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير سمعت شبيبا أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فأوهم فلما انصرف قال « إنه يلبس علينا القرآن إن أقواما منكم يصلون معنا لايحسنون الوضوء فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء » ثم رواه من طريقين آخرين عن عبد الملك بن عمير عن شبيب أبي روح من ذي الكلاع أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم فذكره فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها . وقال أبو العالية في قوله تعالى (والله يحب المطهرين) إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب . وقال الأعمش التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك ، وقد ورد في الحديث المروي من طرق في السنن وغيرها أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء « قد أثنى الله عليكم في الطهور فماذا تصنعون ! » فقالوا تستنجي بالماء ، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عبد الله بن شبيب حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال : وجدته في كتاب أبي عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في أهل قباء (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إنا نتبع الحجارة بالماء . رواه البزار ، ثم قال تفرد به محمد بن عبد العزيز عن الزهري ولم يرو عنه سوى ابنه (قلت) وإنما ذكرته بهذا

(١) في مسلم : يذكر .

اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين أو كلهم والله أعلم .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى لا يستوى من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل فانما يبنى هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار أى طرف حفيرة مثاله (فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين) أى لا يصلح عمل المفسدين . قال جابر بن عبد الله رأيت المسجد الذى بنى ضرارا يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ ، وقال ابن جريج ذكر لنا أن رجالا حفروا فوجدوا الدخان الذى يخرج منه . وكذا قال قتادة وقال خلف بن يا سين الكوفى رأيت مسجد المنافقين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة ، رواه ابن جرير رحمه الله . وقوله تعالى (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) أى شكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقا فى قلوبهم كما أشرب عابدو العجل حبه ، وقوله (إلا أن تقطع قلوبهم) أى بموتهم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدى وحبيب بن أبى ثابت والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف (والله عليم أى بأعمال خلقه (حكيم) فى مجازاتهم عنها من خير وشر

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها فى سبيله بالجنة وهذا من فضله وكرمه وإحسانه فانه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له . ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة بايعهم والله فأغلى ثمنهم . وقال شمر بن عطية مامن مسلم إلا ولله عزوجل فى عنقه بيعة وفى بها أومات عليها ثم تلا هذه الآية . ولهذا يقال من حمل فى سبيل الله بايع الله أى قبل هذا العقد ووفى به . وقال محمد بن كعب القرظى وغيره قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى ليلة العقبة اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال « أشترط لربى أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا . وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك قال « الجنة » قالوا ربح البيع لا نقيل ولانستقيل ، فنزلت (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) الآية وقوله (يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) أى سواء قتلوا أو قتلوا ، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة . ولهذا جاء فى الصحيحين « وتكفل الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه إلا جهاد فى سبيلى وتصديق برسلى بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » وقوله (وعدا عليه حقا فى التوراة والأنجيل والقرآن) تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله فى كتبه الكبار وهى التوراة المنزلة على موسى . والأنجيل المنزل على عيسى . والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقوله (ومن أوفى بعهده من الله) فانه لا يخلف الميعاد . هذا كقوله (ومن أصدق من الله حديثا) (ومن أصدق من الله قيلا) ولهذا قال (فاشتبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو

الفوز العظيم) أى فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم .

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة (التائبون) من الذنوب كلها التاركون للفواحش (العابدون) أى القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهى الأقوال والأفعال فمن أخص الأقوال الحمد فلهذا قال (الحامدون) ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع وهو المراد بالسياحة ههنا ولهذا قال (السائحون) كما وصف أزواج النبى ﷺ بذلك فى قوله تعالى (سائحات) أى صائمات وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة ولهذا قال (الراكعون الساجدون) وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغى فعله ويجب تركه وهو حفظ حدود الله فى تحليله وتحريمه علما وعملا فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق ر لهذا قال (وبشر المؤمنين) لأن الإيمان يشمل هذا كله والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

﴿ بيان أن المراد بالسياحة الصيام ﴾ قال سفيان الثورى عن عاصم عن ذر عن عبد الله بن مسعود قال (السائحون) الصائمون وكذا روى عن سعيد بن جبير والعوفى عن ابن عباس وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كل ما ذكر الله فى القرآن السياحة هم الصائمون وكذا قال الضحاك رحمه الله وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا إبراهيم بن يزيد عن الوليد بن عبد الله عن عائشة رضى الله عنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيام ، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعبد الرحمن السلمى والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم أن المراد بالسائحين الصائمون ، وقال الحسن البصرى (السائحون) الصائمون شهر رمضان وقال أبو عمرو العبدى (السائحون) الذين يديمون الصيام من المؤمنين ، وقد ورد فى حديث مرفوع نحو هذا وقال ابن جرير حدثنى محمد بن عبد الله بن بزيع حدثنا حكيم بن حزام حدثنا سليمان عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السائحون هم الصائمون » وهذا الموقوف أصح وقال أيضا حدثنى يونس عن ابن وهب عن عمر بن الحارث عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير قال سئل النبى ﷺ عن السائحين فقال « هم الصائمون » وهذا مرسل جيد وهذا أصح الأقوال وأشهرها وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد وهو ما روى أبو داود فى سننه من حديث أبى أمامة أن رجلا قال يا رسول الله ائذن لى فى السياحة فقال النبى ﷺ « سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة أخبرنى عمارة بن غزية أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبدلنا الله بذلك الجهاد فى سبيل الله والتكبير على كل شرف » وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المهاجرون رواها ابن أبى حاتم وليس المراد من السياحة ماقد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض والتفرد فى شواهق الجبال والكهوف والبرارى فان هذا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتن والزلازل فى الدين كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » وقال العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (والحافظون لحدود الله) قال القائمون بطاعة الله وكذا قال الحسن البصرى وعنه رواية (الحافظون لحدود الله) قال لفرائض الله وفى رواية القائمون على أمر الله

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ

أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ *وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبيه قال لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال « أى عم ، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال أنا على ملة عبد المطلب فقال النبى ﷺ « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فنزلت (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) قال ونزلت فيه (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) أخرجاه . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم أخبرنا سفيان عن أبى إسحق عن أبى الخليل عن على رضى الله عنه قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان ؟ فقال أو لم يستغفر إبراهيم لأبيـه ؟ . فذكرت ذلك للنبى ﷺ فنزلت (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية قال لما مات فلا أدرى قاله سفيان أو قاله إسرائيل أو هو فى الحديث لما مات قلت : هذا ثابت عن مجاهد أنه قال لما مات . وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى حدثنا زهير حدثنا زبيد بن الحارث اليامى عن محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه قال كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ونحن فى سفر فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله مالك ؟ قال « إنى سألت ربى عز وجل فى الاستغفار لأمى فلم يأذن لى فدمعت عيناى رحمة لها من النار وإنى كنت نهيتكم عن ثلاث : نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً . ونهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاث فكلوا وأمسكوا ما شئتم ، ونهيتكم عن الأشربة فى الأوعية فاشربوا فى أى وعاء شئتم ولا تشربوا مسكرا » وروى ابن جرير من حديث علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبى ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليـه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً فقلنا يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت . قال « إنى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى » فما رئى باكيا أكثر من يومئذ . وقال ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا أبى حدثنا خالد بن خداش حدثنا عبد الله بن وهب عن ابن جريج عن أيوب بن هانىء عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ يوما إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلا ثم بكى فبكينا لبكائه ثم قام فقام إليـه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا فقال « ما أبكاكم ؟ » فقلنا بكينا لبكائك . قال « إن القبر الذى جلست عنده قبر آمنة وإنى استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى » ثم أورده من وجه آخر ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريبا منه . وفيه « وإنى استأذنت ربى فى الدعاء لها فلم يأذن لى وأنزل على (ما كان للنبى والذين آمنوا) الآية. فأخذنى ما يأخذ الولد للوالد : وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة »

(حديث آخر) فى معناه قال الطبرانى : حدثنا محمد بن على بن المروزى حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب حدثنا إسحق بن عبد الله بن كيسان عن أبيـه عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه : أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم ، فذهب فنزل على قبر أمه فناجى ربه طويلا ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه وبكى هؤلاء لبكائه وقالوا ما بكى نبى الله بهذا المكان إلا وقد أحدث الله فى أمته شيئا لا تطيقه فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم فقال « ما يبكيكم ؟ » قالوا يا نبى الله بكينا لبكائك فقلنا لعله أحدث فى أمتك شىء لا تطيقه ، قال « لا ، وقد كان بعضه ولكن نزلت على قبر أمى فسألت الله أن يأذن لى فى شفاعتها يوم القيامة فأبى الله أن يأذن لى فرحمتها وهى أمى فبكيت ثم جاءنى جبريل فقال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) فتبرأ أنت من أمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه فرحمتها وهى أمى

ودعوت ربى أن يرفع عن أمتى أربعافرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت ربى أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيعا وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهرج » وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كداء وكانت عسفان لهم ، وهذا حديث غريب وسياق عجيب وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادى فى كتاب السابق واللاحق بسند مجهول عن عائشة فى حديث فيه قصة أن الله أحيا أمه فآمنت ثم عادت ، وكذلك ما رواه السهيلى فى الروض بسند فيه جماعة مجهولون: إن الله أحيا له أباه وأمه فآمنا به. وقد قال الحافظ بن دحية : هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع ، قال الله تعالى (ولا الذين يموتون وهم كفار) وقال أبو عبد الله القرطبى : إن مقتضى هذا الحديث ورد على ابن دحية فى هذا الاستدلال بما حاصله أن هذه حياة جديدة كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها فصلى على العصر قال الطحاوى وهو حديث ثابت يعنى حديث الشمس قال القرطبى فليس إحياؤهما يمتنع عقلا ولا شرعا قال وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب فآمن به (قلت) وهذا كله متوقف على صحة الحديث فإذا صح فلا مانع منه والله أعلم . وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية أن النبى ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عز وجل عن ذلك فقال « إن إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم قد استغفر لأبيه » فأنزل الله (وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) الآية ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ثم أنزل الله (وماكان استغفار إبراهيم لأبيه) الآية وقال قتادة فى الآية ذكر لنا أن رجالا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العانى ويوفى بالذمم أفلا نستغفر لهم ؟ قال فقال النبى صلى الله عله وسلم « بلى والله إنى لأستغفر لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه » فأنزل الله (ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) حتى بلغ قوله (الجحيم) ثم عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام فقال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) الآية قال وذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال « قد أوحى الله إلى كلمات فدخلن فى أذنى ووقرن فى قلبى : أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركا ومن أعطى فضل ماله فهو خير له ومن أمسك فهو شر له ولا يلوم الله على كفاف » وقال الثورى عن الشيبانى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مات رجل يهودى وله ابن مسلم فلم يخرج معه فذكر ذلك لابن عباس فقال فكان ينبغى له أن يمشى معه ويدفنه ويدعو له بالصلاح مادام حيا فإذا مات وكله إلى شأنه ثم قال (وماكان استغفار إبراهيم لأبيه - إلى قوله - تبرأ منه) لم يدع . ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره عن على رضى الله عنه ، لما مات أبو طالب قلت يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات قال « اذهب فواره ولا تحدثن شيئا حتى تأتينى » فذكر تمام الحديث ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما مرت به جنازة عمه أبى طالب قال « وصلتك رحمة يا عم » وقال عطاء بن أبى رباح : ماكنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ولو كانت حبشية حبلى من الزنا لأنى لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين يقول الله عز وجل (ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية

وروى ابن جرير عن ابن وكيع عن أبيه عن عصمة بن راشد عن أبيه قال : سمعت أبا هريرة يقول رحم الله رجلا استغفر لأبى هريرة ولأمه قلت ولأبيه قال لا . قال إن أبى مات مشركا ، وقوله (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) قال ابن عباس ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ،فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وفى رواية لما مات تبين له أنه عدو لله وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير إنه يتبرأ منه يوم القيامة حين يلقى أباه وعلى وجه أبيه القترة والغبرة فيقول يا إبراهيم إنى كنت أعصيك وإنى اليوم لاأعصيك فيقول أى ربى ألم تعدنى ان لا تخزنى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد فيقال انظر إلى ماوراءك فإذا هو بذيخ متلطخ أى قد مسخ ضبعا ثم يسحب بقوائمه ويلقى فى النار. وقوله (إن إبراهيم لأواه حليم) قال سفيان الثورى وغير واحد عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن عبدالله بن مسعود أنه قال الأواه الدعاء وكذا روى من غير وجه عن ابن مسعود وقال ابن جرير

حدثنى المثنى حدثنا الحجاج بن منهال حدثنى عبد الحميد بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب عن عبدالله بن شداد بن الهاد قال بينا النبي ﷺ جالس قال رجل يا رسـول الله ما الأواه ؟ قال « المتضرع » قال (إن إبراهيم لأواه حليم) ورواه ابن أبى حاتم من حـديث ابن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام به ولفظه قال الأواه المتضرع الدعاء . وقال الثورى عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن أبى الغدير أنه سأل ابن مسعود عن الأواه فقال هو الرحيم ، وبه قال مجاهد وأبو ميسرة عمر بن شر حبيل والحسن البصرى وقتادة وغيرهما أنه أى الرحيم أى بعباد الله . وقال ابن المبارك عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال الأواه الموقن بلسان الحبشة ، وكذا قال العوفى عن ابن عباس أنه الموقن ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقال على بن أبى طلحة ومجاهد عن ابن عباس الأواه المؤمن زاد على بن أبى طلحة عنه هو المؤمن التواب ، وقال العوفى عنه هو المؤمن بلسان الحبشة . وكذا قال ابن جريج هو المؤمن بلسان الحبشة

وقال الإمام أحمد حدثنا موسى حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن على بن رباح عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل يقال له ذو النجادين « إنه أواه » وذلك أنه رجل كان إذا ذكر الله فى القرآن رفع صـوته بالدعاء ورواه ابن جرير . وقال سعيد بن جبير والشعبى الأواه المسبح وقال ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبى الزاهرية عن جبير بن نفير عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأواه ، وقال شفى ابن ماتع عن أبى أيوب الأواه الذى إذا ذكر خطاياه استغفر منها ، وعن مجاهد الأواه الحفيظ الرجل يذنب الذنب سرا ثم يتوب منه سرا ذكر ذلك كله ابن أبى حاتم رحمه الله . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا المحاربى عن حجاج عن الحكم عن الحسن بن مسلم بن يناق أن رجلا كان يكثر ذكر الله ويسبح فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال « إنه أواه » وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا ابن هانىء حدثنا المنهال بن خليفة عن حجاج بن أرطاة عن عطاء عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم دفن ميتا فقال « رحمك الله إن كنت لأواها » يعنى تلاء للقرآن ، وقال شعبة عن أبى يونس الباهلى قال سمعت رجلا بمكة وكان أصله روميا وكان قاصا يحدث عن أبى ذر قال : كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول فى دعائه أوه أوه فذكر ذلك للنبى صـلى الله عليه وسـلم فقال « إنه أواه » قال فخرجت ذات ليلة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح . هذا حديث غريب رواه ابن جرير . وروى عن كعب الأحبار أنه قال سمعت (إن إبراهيم لأواه) قال كان إذا ذكر النار قال أوه من النار وقال ابن جريج عن ابن عباس (إن إبراهيم لأواه) قال فقيه . قال الإمام أبو جعفر بن جرير وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعاء وهو المناسب للسياق وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها أياه وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليما عمن ظلمه وأناله مكروها ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له فى قوله (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا) فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر ولهذا قال تعالى (إن إبراهيم لأواه حليم)

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

يقال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل إنه لا يضل قوما إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة كما قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم) الآية . وقال مجاهد فى قوله تعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم) الآية قال بيان الله عزوجل للمؤمنين فى ترك الاستغفار للمشركين خاصة وفى بيانه لهـم معصيته وطاعته عامة فافعلوا أو ذروا . وقال ابن جرير يقول الله تعالى وما كان الله ليقضى عليكم فى استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله حتى يتقدم إليكم بالنهى عنه فتتركوا فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهى عنه ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه فانه لا يحكم عليكم بالضلال فان الطاعة والمعصية إنما يكونان من الأمور

والنهى ، وأما من لم يؤمن ولم ينه فغير كائن مطيعا أوعاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه ، وقوله تعالى (إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير) قال ابن جرير هـذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين فى قتال المشركين وملوك الكفر وأنهم يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه فانه لا ولى لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن أبى دلامة البغدادى حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال بينا رسول الله صلى الله عليه بين أصحابه إذا قال لهم « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا ما نسمع من شيء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » وقال كعب الأحبار ما من موضع خرمة إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها يرفع علم ذلك إلى الله ، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مخه مسيرة مائة عام

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

قال مجاهد وغير واحد نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر فى سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء ، قال قتادة خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم ، وقال ابن جرير حدثنى يونس ابن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال عن عتبة بن أبى عتبة عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب فى شأن العسرة فقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده فقال أبو بكر الصديق يا رسول الله إن الله عزوجل قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا فقال « تحب ذلك ؟ » قال نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت فملؤا مامعهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر ، وقال ابن جرير فى قوله (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) أى من النفقة والظهر والزاد والماء (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) أى عن الحق ويشك فى دين الرسول صلى الله عليه وسلم ويرتاب للذى نالهم من المشقة والشدة فى سفرهم وغزوهم (ثم تاب عليهم) يقول ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه (إنه بهم رءوف رحيم)

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن أخى الزهرى محمد بن عبد الله عن عمه محمد بن مسلم الزهرى أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبيد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فقال كعب بن مالك لم

أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزاة غزاها قط إلا فى غزاة تبوك غير أنى كنت تخلفت فى غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها وأشهر وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزاة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز واستقبل عدوا كثيرا فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فأخبرهم وجهه الذى يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر فتجهز اليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازى شيئا فأقول لنفسى أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعدمافصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازى شيئا ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن ارتحل فألحقهم وليت أنى فعلت ثم لم يقدر ذلك لى فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق أو رجلا ممن عذره الله عز وجل ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك « ما فعل كعب بن مالك » فقال رجل من بنى سلمة حبسه يارسول الله برداه والنظر فى عطفيه فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت والله يارسول الله ماعلمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال كعب بن مالك فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عنى الباطل وعرفت أنى لم أنج منه بشىء أبدا فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لى « تعال » فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى « ماخلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرا » فقلت يارسول الله إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ولئن حدثتك بصدق تجد على فيه إنى لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل والله ما كان لى عذر والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك قال : فقال رسول الله ﷺ « أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك » فقمت وقام إلى رجال من بنى سلمة واتبعونى فقالوا لى والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك قال فوالله مازالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى قال ثم قلت لهم هل لقى معى هذا أحد قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ماقلت وقيل لهما مثل ماقيل لك فقلت فمن هما قالوا مرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أمية الواقفى فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا لى فيهما أسوة قال فمضيت حين ذكروها لى قال ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى

تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى كنت أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأماصاحباى فاستكانا وقعدا
فى بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلايكلمنى
أحد وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول فى نفسى أحرك شفتيه بردالسلام
على أم لا ثم أصلى قريبامنه وأسارقه النظرفاذا أقبلت على صلاتى نظر الى فاذا التفت نحوه أعرض عنى حتى إذا طال على
ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ فسلمت عليه فوالله مارد
على السلام فقلت له يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله قال فسكت قال فعدت له فنشدته فسكت فعدت
له فنشدته فسكت فقال الله ورسوله أعلم . قال ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشى بسوق المدينة
إذا أنا بنبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون
له إلى حتى جاء فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا فاذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وان
الله لم يجعلك فى دار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك قال فقلت حين قرأته وهذا أيضا من البلاء قال فتيممت به التنور
فسجرته به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى يقول يأمرك رسول الله صلى
الله عليه وسلم أن تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال . بل اعتزلها ولا تقربها ، قال وأرسل
إلى صاحبىّ بمثل ذلك قال فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر مايشاء
قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله إن هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم فهل
تكره أن أخدمه قال « لا ولكن لايقربك » قالت وإنه والله مابه من حركة إلى شىء وإنه والله مازال يبكى
منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك فقد
أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدرى ما يقول فيها
رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب قال فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن
كلامنا قال ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله
تعالى منا قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته أبشر
يا كعب بن مالك قال فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا فآذن رسول الله ﷺ
بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبىّ مبشرون وركض إلى رجل فرسا
وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت
له ثوبىّ فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك يومئذ غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول الله
ﷺ وتلقانى الناس فوجا فوجا يهنونى بتوبة الله يقولون لهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله
ﷺ جالس فى المسجد والناس حوله فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى والله ماقام إلى رجل من
المهاجرين غيره قال فكان كعب لاينساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه
من السرور « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » قال قلت أمن عندك يارسول الله أم من عند الله قال
« لابل من عند الله » قال وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه فلما
جلست بين يديه قلت يارسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله قال « أمسك عليك بعض
مالك فهو خير لك » قال فقلت فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر وقلت يارسول الله إنما نجانى الله بالصدق وإن من توبتى
أن لا أحدث إلا صدقا مابقيت قال فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك
لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى والله ماتعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومى
هذا ، وانى لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى

(قال) وأنزل الله تعالى (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ

obeikandi.com

قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) إلى آخر الآيات . قال كعب فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للاسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه فان الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تعالى (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) قال وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه فلذلك قال الله عز وجل (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وليس تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا الذى ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه . هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها وكذا روى عن غير واحد من السلف في تفسيرها كما رواه الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) قال هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد وكلهم قال مرارة بن ربيعة ، وكذا في مسلم بن ربيعة في بعض نسخه وفي بعضها مرارة بن الربيع ، وفي رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع كما وقع في الصحيحين وهو الصواب ، وقوله فسموا رجلين شهدا بدرا قيل إنه خطأ من الزهري فانه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدرا والله أعلم .

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحوا من خمسين ليلة بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت أي مع سعتها فسددت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في تخلفهم وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم ، ولهذا قال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم ومخرجا وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب فان الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » أخرجاه في الصحيحين ، وقال شعبة عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل اقرءوا إن شئتم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) هكذا قرأها ثم قال فهل تجدون لأحد فيه رخصة ، وعن عبد الله بن عمر في قوله (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) قال مع محمد ﷺ وأصحابه ، وقال الضحاك مع أبي بكر وعمر وأصحابهما وقال الحسن البصري إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة فانهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم (لا يصيبهم ظمأ) وهو العطش (ولا نصب) وهو التعب (ولا مخمصة) وهى المجاعة (ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار) أى ينزلون منزلا يرهب عدوهم (ولا ينالون) منه ظفراً وغلبة عليه (إلا كتب لهم) بهذه الأعمال التى ليست داخلة تحت قدرهم وإنما هى ناشئة عن أفعالهم أعمالا صالحة وثوابا جزيلا (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) كقوله (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا)

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى : ولا ينفق هؤلاء الغزاة فى سبيل الله (نفقة صغيرة ولا كبيرة) أى قليلا ولا كثيرا (ولا يقطعون وادياً) أى فى السير إلى الأعداء (إلا كتب لهم) ولم يقل ههنا به لأن هذه أفعال صادرة عنهم ولهذا قال (ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق فى هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة كما قال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثنا أبو موسى العنزى حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنى سليمان بن المغيرة حدثنى الوليد بن أبى هشام عن فرقد بن أبى طلحة عن عبد الرحمن بن حباب السلمى قال خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان رضى الله عنه علىّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، قال ثم حث فقال عثمان على مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها ، قال ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث فقال عثمان بن عفان علىّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها ، وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب « ما على عثمان ما عمل بعد هذا » وقال عبد الله أيضا حدثنا هارون ابن معروف حدثنا ضمرة حدثنا عبد الله بن شوذب عن عبد الله بن القاسم عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة عن عبد الرحمن بن سمرة قال جاء عثمان رضى الله عنه إلى النبى ﷺ بألف دينار فى ثوبه حتى جهز النبى ﷺ جيش العسرة قال فصبها فى حجر النبى ﷺ فرأيت النبى ﷺ يقلبها بيده ويقول « ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم » يرددها مرارا ، وقال قتادة فى قوله تعالى (ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم) الآية ما ازداد قوم فى سبيل الله بعدا من أهليهم إلا ازدادوا قربا من الله

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فانه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى (انفروا خفافا وثقالا) وقال (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب) الآية قال فنسخ ذلك بهذه الآية . وقد يقال إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحى عليه وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو فيجتمع لهم الأمران فى هذا النفير المعين وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحى إما للتفقه وإما للجهاد فانه فرض كفاية على الأحياء وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبى ﷺ وحده (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يعنى عصبة يعنى السرايا ولا يسيروا

إلا بإذنه فاذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى فذلك قوله (ليتفقهوا فى الدين) يقول ليعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم (لعلهم يحذرون) وقال مجاهد نزلت هذه الآية فى أناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا فى البوادى فاصابوا من الناس معروفا ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم مانراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا فى أنفسهم من ذلك تحرجا وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلو على النبى صلى الله عليه وسلم فقال الله عزوجل (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يبغون الخير (ليتفقهوا فى الدين) وليستمعوا ما فى الناس وماأنزل الله فعذرهم (ولينذروا قومهم) الناس كلهم إذا رجعوا إليهم (لعلهم يحذرون) وقال قتادة فى الآية هذا إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيوش أمرهم الله أن يغزوا بنبيه صلى الله عليه وسلم وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه فى الدين وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم ، وقال الضحاك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعذار وكان إذا أقام وأسرى السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا باذنه وكان الرجل إذا استرى فنزل بعده قرآن وتلاه نبى الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه القاعدين معه فاذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنا فيقرئونهم ويفقهونهم فى الدين وهو قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول إذا أقام رسول الله (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يعنى بذلك أنه لا ينبغى للمسلمين أن ينفروا جميعا ونبى الله صلى الله عليه وسلم قاعد ولكن إذا قعد نبى الله فسرت السرايا وقعد معه معظم الناس . وقال على بن أبى طلحة أيضاً عن ابن عباس فى الآية قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) إنها ليست فى الجهاد ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين أجدبت بلادهم وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلو بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالاسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم فذلك قوله (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) الآيه وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة فيأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون فى دينهم ويقولون للنبى صلى الله عليه وسلم ماتأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائرنا إذا قدمنا عليهم قال فيأمرهم نبى الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا إن من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان النبى صلى الله عليه وسلم يخبرهم وينذرهم قومهم فاذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة ، وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما) (وما كان لأهل المدينة) الآية قال المنافقون هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه ، وقد كان ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم فأنزل الله عزوجل (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) الآية ونزلت (والذين يحاجون فى الله من بعدما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد) وقال الحسن البصرى فى الآية ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين فى جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضر موت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ودخل الناس من سائر أحياء العرب فى دين

الله أفواجاً شرع فى قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام ، ثم اشتغل فى السنة العاشرة بحجة الوداع ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوما فاختاره الله لما عنده وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به فوطد القواعد وثبت الدعائم ، ورد شارد الدين وهو راغم ، ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام ، وبين الحق لمن جهله ، وأدى عن الرسول ما حمله ، ثم شرع فى تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان ، وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح الله ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنفس كسرى وقيصرومن أطاعهما من العباد . وأنفق كنوزهما فى سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله وكان تمام الأمر على يدى وصيه من بعده ، وولى عهده الفاروق الأواب ، شهيد المحراب ، أبى حفص عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقاً وغربا . وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقربا . ففرقها على الوجه الشرعى . والسبيل المرضى . ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً . أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه شهيد الدار . فكسى الإسلام رياسة حلة سابغة . وأمدت فى سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة . فظهر الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها . وعلت كلمة الله وظهر دينه . وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها . وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالا لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) وقوله تعالى (وليجدوا فيكم غلظة) أى وليجد الكفار منكم غلظة عليهم فى قتالكم لهم فان المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقا لأخيه المؤمن غليظا على عدوه الكافر كقوله تعالى (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) وقوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) وقال تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنا الضحوك القتال » يعنى أنه ضحوك فى وجه وليه قتال لهامة عدوه وقوله (واعلموا أن الله مع المتقين) أى قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة فى غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم . ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الأعداء فى سفال وخسار ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء فى أطراف البلاد وتقدموا إليها فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ثم تقدموا إلى حوزة الاسلام فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله . والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين نواصى أعدائه الكافرين وأن يعلى كلمتهم فى سائر الأقاليم إنه جواد كريم

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

يقول تعالى (وإذا ما أنزلت سورة) فمن المنافقين (من يقول أيكم زادته هذه إيمانا) أى يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيمانا قال الله تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء . بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك . وقد بسط الكلام على هذه المسئلة فى أول شرح البخارى رحمه الله (وأما الذين فى قلوبهم مرض

فزادتهم رجساً إلى رجسهم) أى زادتهم شكا إلى شكهم وريبا إلى ريبهم كما قال تعالى (وننزل من القرآن ماهو شفاء) الآية ، وقوله تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدى القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم كما أن سيئ المزاج لو غذى بما غذى به لايزيده إلا خبالا ونقصا .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَاهُمْ يَذَّكَّرُونَ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

يقول تعالى أولا يرى هؤلاء المنافقون (أنهم يفتنون) أى يختبرون (فى كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون) أى لايتوبون من ذنوبهم السالفة ولاهم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم قال مجاهد يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة بالغزو فى السنة مرة أو مرتين ، وقال شريك عن جابر عن الجعفى عن أبى الضحى عن حذيفة فى قوله (أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين) قال كنا نسمع فى كل عام كذبة أو كذبتين فيضل بها فئام من الناس كثير رواه ابن جرير . وفى الحديث عن أنس : لايزداد الأمر إلا شدة ولا يزداد الناس إلا شحا وما من عام إلا والذى بعده شر منه . سمعته من نبيكم ﷺ وقوله (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون) هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ (نظر بعضهم إلى بعض) أى تلفتوا (هل يراكم من أحد ثم انصرفوا) أى تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم فى الدنيا لايثبتون عند الحق ولايقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى (فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) وقوله تعالى (فما للذين كفروا قبلك مهطعين * عن اليمين وعن الشمال عزين) أى ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينا وشمالا هروبا من الحق وذهابا إلى الباطل وقوله (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) كقوله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون) أى لايفهمون عن الله خطابه ولا يتصدون لفهمه ولا يريدونه بل هم فى شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ماصاروا اليه

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل اليهم رسولا من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه للنجاشى والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية وقال ﷺ « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى : حدثنا أبو أحمد يوسف بن هرون بن زياد حدثنا ابن أبى عمر حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال : أشهد على أبى لحدثنى عن أبيه عن جده عن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يمسنى من سفاح الجاهلية شىء » وقوله تعالى (عزيز عليه ماعنتم) أى يعز عليه الشىء الذى يعنت أمته ويشق عليها ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وفى الصحيح « إن

هذاالدين يسر وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه » (حريص عليكم) أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى اليكم ، وقال الطبرانى حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان بن عيينة عن قطن عن أبى الطفيل عن أبى ذر قال : تركنا رسول الله صلى الله عليه ولم وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علما قال : وقال رسول الله ﷺ « ما بقى شىء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم » وقال الإمام أحمد : حدثنا قطن حدثنا المسعودى عن الحسن بن سعد عن عبدة الهذلى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع ألا وإنى آخذ بحجزكم أن تهافتوا فى النار كتهافت الفراش أو الذباب » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن ابن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه . فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد مايقطعون به المفازة ولا مايرجعون به فبينماهم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة فقال : أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء تتبعونى ؟ فقالوا نعم قال فانطلق بهم فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لى إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعونى ؟ فقالوا بلى فقال : فان بين أيديكم رياضا هى أعشب من هذه وحياضا هى أروى من هذه فاتبعونى فقالت طائفة صدق والله لنتبعنه ، وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه ، وقال البزار حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا حدثنا إبراهيم بن الحكم ابن أبان حدثنا أبى عن عكرمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه فى شىء قال عكرمة أراه قال فى دم[1] فأعطاه رسول الله ﷺ شيئا ثم قال « أحسنت اليك » قال الأعرابى لاولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا اليه فأشار رسول الله ﷺ اليهم أن كفوا فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابى إلى البيت فقال « إنك إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت » فزاده رسول الله ﷺ شيئا وقال « أحسنت إليك ؟ » فقال الأعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . قال النبى صلى الله عليه وسلم « إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ماقلت . وفى أنفس أصحابى عليك من ذلك شىء فاذا جئت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى حتى يذهب عن صدورهم » فقال نعم : فلما جاء الأعرابى قال رسول الله ﷺ « إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ماقال ، وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضى ، كذلك يا أعرابى ؟ » فقال الأعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا . فقال لهم صاحب الناقة خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها فتوجه الها وأخذ لها من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وإنى لو أطعتكم حيث قال ماقال لدخل النار » رواه البزار ثم قال لانعلمه يروى إلا من هذا الوجه (قلت) وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم ، وقوله (بالمؤمنين رءوف رحيم) كقوله (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم) وهكذا أمره تعالى فى هذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى (فإن تولوا) أى تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة (فقل حسبى الله لاإله إلا هو) أى الله كافى لاإله إلا هو عليه توكلت كما قال تعالى (رب المشرق والمغرب لاإله إلا هو فاتخذه وكيلا) (وهو رب العرش العظيم) أى هو مالك كل شىء وخالقه لأنه رب العرش العظيم الذى هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين ومافيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شىء وقدره نافذ فى كل شىء وهو على كل شىء وكيل ، قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى بكر حدثنا بشر بن عمر حدثنا شعبة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما عن أبى بن كعب

---

(١) أى دية قتيل .

قال : آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة ، وقال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا عبد المؤمن حدثنا عمر بن شقيق حدثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب رضى الله عنهم أنهم جمعوا القرآن فى مصاحف فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه فكان رجال يكتبون ويملى عليهم أبى بن كعب فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) الآية فظنوا أن هـذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم أبى بن كعب إن رسول الله ﷺ أقرأنى بعدها آيتين (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة قال هـذا آخر ما نزل من القرآن فختم بما فتح به بالله الذى لا إله إلا هو وهو قول الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وهذا غريب أيضاً ، وقال أحمد حدثنا على بن بحر حدثنا على بن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحق عن يحى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى عمر بن الخطاب فقال من معك على هـذا ؟ قال لا أدرى والله إنى لأشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتها وحفظتها فقال عمر وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها فوضعوها فى آخر براءة ، وقد تقدم الكلام أن عمر ابن الخطاب هو الذى أشار على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن فأمر زيد بن ثابت فجمعه وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك ، وفى الصحيح أن زيدا قال فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبى خزيمة ، وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عند رسول الله ﷺ كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها والله أعلم ، وقد روى أبو داود عن يزيد بن محمد عن عبد الرزاق بن عمر – وقال كان من ثقات المسلمين من المتعبدين عن مدرك بن سعد قال يزيد شيخ ثقة عن يونس بن ميسرة عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمه(١) ، وقد رواه ابن عساكر فى ترجمة عبد الرزاق عن عمر هذا من رواية أبا زرعة الدمشقى عنه عن أبى سعد مدرك بن أبى سعد الفزارى عن يونس بن ميسرة بن حليس عن أم الدرداء سمعت أبا الدرداء يقول : ما من عبد يقول حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات صادقا كان بها أو كاذبا إلا كفاه الله ما أهمه . وهذه زيادة غريبة ثم رواه فى ترجمة عبد الرزاق أبى محمد عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق عن جده عبد الرزاق بن عمر بسنده فرفعه فذكر مثله بالزيادة وهذا منكر والله أعلم آخر تفسير سورة براءة ولله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة يونس عليه السلام وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾

أما الحروف المقطعة فى أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها فى أوائل سورة البقرة ، وقال أبو الضحى عن ابن عباس فى قوله تعالى (الر) أى أنا الله أرى . وكذلك قال الضحاك وغيره (تلك آيات الكتاب الحكيم) أى هذه آيات القرآن المحكم المبين وقال مجاهد (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) (٢) وقال الحسن التوراة والزبور : وقال قتادة : (تلك آيات الكتاب) قال الكتب التى كانت قبل القرآن . وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه : وقوله (أكان للناس عجبا) الآية . يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار ومن إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون

(١) كذا فى الأصول بالاستثناء ولا يظهر إلا فى الرواية التالية المبدوءة بالنفى
(٢) بياض بالأصل